روح القدس

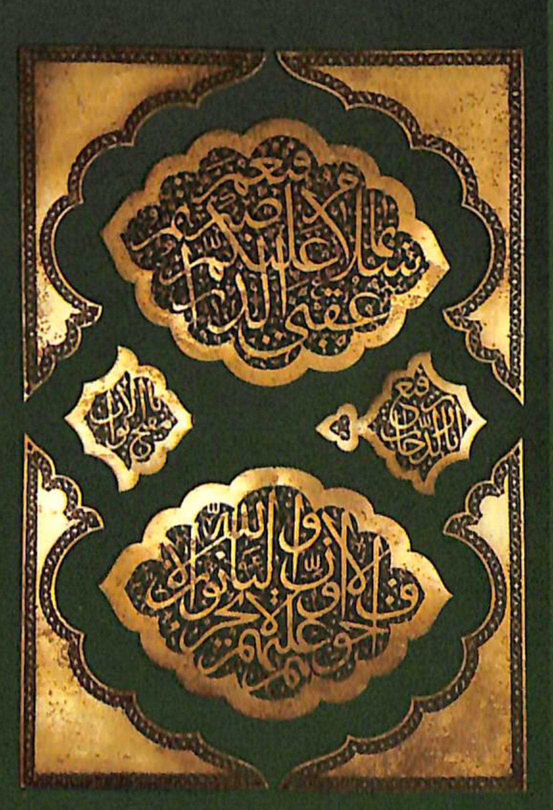
في

محاسبة النفس

ومعه

المبادي والغايات

فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات



تأليف

الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن عربي الطائي الأندلسي

قرأه وعلق عليه

محمود بيجو

دار البيروتي

روح القدس

في

محاسبة النفس



ومعه

المبادي والغايات

فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات

تأليف

الشيخ الأكبر

مُحيي الدين ابن عربي الطّائي الأندلسي

قرأه وعلّق عليه

محمود بيجو



الطبعة الأولى

١٤٢٦ / ٢٠٠٥





دمشق - حلبوني - بناء الخجا - هاتف ٢٤٥١٥٧٤ - ٢٢١٣٩٦٦ فاكس ٢٢٤٣٨٤٨

ص.ب ٢٥٤١٤ - س.ت ٦١٥٠٠ Email : albyrouty@dalylak.com

مقدمة



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا الكتاب:

وهو من كتب الشيخ التي ابتعد فيه عن الأفكار الفلسفية التي توهم الحلول والاتحاد، والإباحة، بل هاجم فيه الشيخ مذهب الحلول والإباحة هجوماً عنيفاً.

هذه الرسالة من رسائل الشيخ السهلة التي يفهمها العام والخاص، وهي تحض على السلوك وتوضيح طريق الآخرة والحث على مكارم الأخلاق، والبعد عن سفاسفها وقبائحها، وذلك عن طريق الحوار مع نفسه بإقامة النماذج الإنسانية الرفيعة المستوى من جيل الصحابة، ثم التابعين، ثم الأولياء الصالحين وحض النفس على سلوك طريقهم والتخلق بأخلاقهم، والاهتداء بهداهم.

هذه الطبعة:

اعتمد أصلاً لهذه الطبعة نسختين مطبوعتين أحدهما مأخوذة عن الأخرى، والنسختان اعتمدتا على مخطوط واحد، ولكني لما بدأت بقراءة النسخ المطبوعة وجدت أخطاء مطبعية كثيرة مع كثير من التصحيف والتحريف، وقد بذلت جهدي لقراءة النص قراءة سليمة، وذلك جهد طاقتي، ومن أجل ذلك رأيت أن أنشر الكتاب نشرة علمية قويمة، وقد تم ذلك بحمد الله وتوفيقه.

فإني أحمد الله سبحانه أن وفقني لإخراج الكتاب على هذا النحو، فإن كنت أصبت فالخير أردت، وإن تكن الأخرى فحسبي أنني بذلت فيه جهدي والحمد لله رب العالمين.

دمشق يوم الاثنين ٢٠/شعبان ١٤٢٥

٤/تشرين الأول ٢٠٠٤

محمود بيجو



ترجمة المؤلف

الشيخ محيي الدين ابن عربي[١]

من أفضل من كتب ترجمة وافية للشيخ محيي الدين ابن العربي، العالم الفاضل الأديب الشيخ أحمد بن المقَّري التلمساني في كتابه القيم «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ورأيت أن ألخص ما كتبه هذا الشيخ الفاضل عن الشيخ الأكبر تيمناً وتبركاً بعمله رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

قال الشيخ أحمد بن المقَّري التلمساني: ومنهم الشيخ الأكبر، ذو المحاسن التي تبهر، سيدي محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبدالله، الحاتمي، من ولد عبدالله بن حاتم أخي عدي بن حاتم، الصوفي الفقيه المشهور الظاهري ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة (٥٦٠م) قرأ القرآن على أبي بكر ابن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي، وحدثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن أبيه، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشراط القرطبي، وحدثه به عن ابن المؤلف وسمع من غير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم.

وكان انتقاله من مرسية لإشبيلية سنة (٥٦٨م) فأقام بها إلى سنة (٥٩٨م)، ثم ارتحل إلى المشرق وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفي وابن عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي، ودخل مصر، وأقام بالحجاز مدة ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بسفح قاسيون وله قبر يزار.

---

(١) **مصادر الترجمة**: التكملة: (٦٥٢) والذيل والتكملة (٦/ ٢٠٢) (نسخة باريس) وعنوان الدراية: (٩٧) والوافي (٤/ ١٧٣ ـ ١٧٨) والفوات (٢/ ٤٧٨) وشذرات الذهب (٥/ ١٩٠ ـ ٢٠٢) والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٣٩) ومرآة الزمان: (٧٣٦) وطبقات المناوي، ولسان الميزان. وفي كتبه معلومات كثيرة عنه.

وقال ابن الأبار: إنه أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الولاة، ثم رحل إلى المشرق حاجاً، ولم يعد بعدها إلى الأندلس. وقال أيضاً: إنه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين، وأخذوا عنه، وقال غيره: إنه قدم بغداد سنة (٦٠٨) وكان يوماً إليه بالفضل والمعرفة، والغالب عليه طرق أهل الحقيقة، وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف، ووصفه غير واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز، وله أصحاب وأتباع.

ومن تآليفه مجموع ضمَّنه منامات رآى فيها النبي ﷺ وما سمع منه، ومنامات قد حدَّث بها عمن رآه ﷺ.

قال ابن النجار: وكان قد صحب الصوفية، وأرباب القلوب، وسلك طريق الفقر، وحجَّ وجاور، وكتب في علم القوم، وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادها، وله أشعار حسنة وكلام مليح، اجتمعت به في دمشق في رحلتي إليها، وكتبت عنه شيئاً من شعره ونعم الشيخ هو، ذكر لي أنه دخل بغداد سنة (٦٠١) فأقام بها اثني عشر يوماً، ثم دخلها ثانياً حاجًّاً مع الركب سنة (٦٠٨)، وأنشدني لنفسه:

أيا حائراً ما بين علم وشهوة ... ليتصلا ما بين ضدين من وصل

ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن ... يرى الفضل للمسك الفتيق على الزبل

وسألته عن مولده فقال: ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة (٥٦٠) بمرسية من من بلاد الأندلس، انتهى.

وقال ابن مسدي: إنه كان جميل الجملة والتفصيل، محصِّلاً لفنون العلم أخص تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلحق، والتقدم الذي لا يسبق.

وقد أجاز الملك المظفر غازي ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب مامعناه أو نصه: ومن شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبدالله الإشبيلي، رحمه الله تعالى، حدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعين لي من أسمائها تلقين المهتدي، والأحكام الكبرى، والوسطى، والصغرى، وكتاب التهجد، وكتاب العافية، ونظمه ونثره، وحدثني بكتب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي شريح بن محمد بن شريح عنه وقال: إن الحافظ السلفي أجاز له، انتهى.

قال بعض الحفاظ: وأحسبها الإجازة العامة.

وكان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات.

وقال الذهبي في حقه: إن له توسعاً في الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة، وتوقيعاً في التصوف، وتواليف حجة في العرفان، لولا شطحه في كلامه وشعره، ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته، فيرجى له الخير، انتهى.

وقال الشيخ محيي الدين: إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزمه بذلك.

وقال: ينبغي للسالك أنه متى حضر له أنه يعقد على أمر ويعاهد الله تعالى عليه، أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته، فإن يسر الله تعالى فعله فَعَلَهُ، وإن لم ييسر الله فعله، يكون مخلصاً من نكث العهد، ولا يكون متصفاً بنقض الميثاق.

ومن نظم الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى قوله:

بين التذلل والتدلل نقطة   فيها يتيه العالم النحرير

هي نقطة الأكوان إن جاوزتها   كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وحكى المقريزي في ترجمة سيدي عمر بن الفارض، أفاض الله علينا من أنواره - أن الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إليه يستأذنه في شرح التائية، فقال: كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها، انتهى.

وكلامه يحتاج إلى تأويل مثل قوله رحمه الله تعالى:

يا من يراني ولا أراه   كم ذا أراه ولا يراني

قال رحمه الله تعالى: قال لي بعض إخواني لما سمع هذا البيت: كيف تقول: إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له مرتجلاً.

يا من يراني مجرماً   ولا أراه آخذاً

كم ذا أراه منعماً   ولا يراني لائذاً

قلت: من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤول، وأنه لا يقصد ظاهره، وإنما محامل تليق به، وكفاك شاهداً هذه الجزئية الواحدة. فأحسن

الظن به ولا تنتقد، بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير، والتسليم أسلم، والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم.

وقد تأول بعض العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بإيمان فرعون أن مراده بفرعون النفس بدليل ما سبق.

وحكى سبط ابن الجوزي عن الشيخ محيي الدين أنه كان يقول: إنه يحفظ الاسم الأعظم، ويقول: إنه يعرف السيميا بطريق التنزل، لا بطريق التكسب، انتهى والله أعلم والتسليم أسلم.

وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة، وآيته الباهرة، ولا يلتفت إلى كلام من تكلم فيه، ولله در السيوطي الحافظ فإنه ألف «تنبيه الغبي على تنزيه ابن العربي»، ومقام هذا الشيخ معلوم، والتعريف به يستدعي طولاً، وهو أظهر من نار على علم.

وكان بالمغرب يعرف بابن العربي بالألف واللام، واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر ابن العربي.

وقال ابن خاتمة في كتابه «مزية المريَّة» ما نصه: محمد بن علي بن محمد الطائي الصوفي، من أهل إشبيلية، وأصله من مرسية، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن العربي وبالحاتمي أيضاً، أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الولاة بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجاً فأدى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الحرستاني ومن غيره، وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن ابن أبي نصر في شوال سنة ٦٠٦، كان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي، ويقول بها، وبرع في علم التصوف، وله في ذلك تواليف كثيرة: منها «الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل» و«الجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة» وكتاب «كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنى» وكتاب المعارف الإلهية» وكتاب «الإسرا إلى المقام الأسرى» وغيرها كثير.

ولا خفاء أن مقام الشيخ عظم بعد انتقاله من المغرب، وقد ذكر رحمه الله تعالى في بعض كتبه أن مولده بمرسية.

وقد روي عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ كلهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال: كنا في مجلس الدرس بين يدي

الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فجاء في باب الردة ذكر لفظة الزنديق، فقال بعضهم: هل هي عربية أو عجمية؟ فقال بعض الفضلاء: إنما هي فارسية معربة، أصلها زن دين، أي على دين المرأة، وهو الذي يضمر الكفر ويظهر الإيمان، فقال بعضهم: مثل من؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ: مثل ابن عربي بدمشق، فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه، قال الخادم: وكنت صائماً ذلك اليوم، فاتفق أن الشيخ دعاني للإفطار معه، فحضرت ووجدت منه إقبالاً ولطفاً، فقلت له يا سيدي، هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا؟ فقال: مالك ولهذا؟ كل، فعرفت أنه يعرفه، فتركت الأكل وقلت له: لوجه الله تعالى عرفني به، من هو؟ فتبسم رحمه الله تعالى، وقال لي: الشيخ محيي الدين بن عربي، فأطرقت ساكتاً متحيراً، فقال: مالك؟ فقلت: يا سيدي قد حرت قال: لم؟ قلت: أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت؟ فقال: اسكت، ذلك مجلس الفقهاء، هذا الذي روي لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام.

وأما قول غيره من أضراب الشيخ عز الدين فكثير، كان الشيخ كمال الدين الزملكاني من أجل مشايخ الشام أيضاً يقول: ما أجهل هؤلاء! ينكرون على الشيخ محيي الدين بن عربي لأجل كلمات وألفاظ وقعت في كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها، فليأتوني لأحل لهم مشكله، وأبين لهم مقاصده، بحيث يظهر لهم الحق، ويزول عنهم الوهم.

وهذا القطب سعد الدين الحموي سئل عن الشيخ محيي الدين بن عربي لما رجع من الشام إلى بلاده، كيف وجدت ابن عربي؟ فقال: وجدته بحراً زخاراً لاساحل له.

وهذا الشيخ صلاح الدين الصفدي له كتاب جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة، تنظر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي لتعرف مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية.

وقوله في شيء من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره: إنه صنفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية، وأمره بإخراجه إلى الناس، قال الشيخ الذهبي حافظ

الشام: ما أظن المحيي يتعمد الكذب أصلاً، وهو من أعظم المنكرين وأشدهم على طائفة الصوفية.

ثم إن الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى، كان مسكنه ومظهره بدمشق، وأخرج هذه العلوم إليهم، ولم ينكر عليه أحد شيئاً من ذلك، وكان قاضي القضاة الشافعية في عصره شمس الدين أحمد الخويّي يخدمه خدمة العبيد، وقاضي القضاة المالكية زوَّجه بابنته، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ.

وأما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات، وقول المنكرين في حق مثله غثاء وهباء لا يعبأ به والحمد لله رب العالمين، انتهى ما نقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه وقد اعتني بتربته بصالحية دمشق سلاطين بني عثمان، نصرهم الله تعالى على توالي الأزمان، وبنى عليه السلطان المرحوم سليم خان المدرسة العظيمة، ورتب له الأوقاف، وقد زرت قبره وتبركت به مراراً، ورأيت لوائح الأنوار عليه ظاهرة، ولا يجد منصف محيداً إلى إنكار ما يشاهد عند قبره من الأحوال الباهرة، وكانت زيارتي له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة (١٠٣٧) وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا في إراقة دمه، فخلصه الله تعالى على يد الشيخ أبي الحسن البجائي، فإنه سعى في خلاصه وتأول كلامه وتوفي الشيخ محيي الدين في نحو الأربعين وستمائة، وكان يحدث بالإجازة العامة عن السلفي، رحمه الله تعالى انتهى[١].

---

(١) مأخوذ بتصرف من «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للشيخ أحمد بن المقَّري التلمساني. المجلد الثاني (ص: ١٦١) ترجمة رقم (١١٣).

رسالة

روح القدس في محاسبة النفس

تأليف

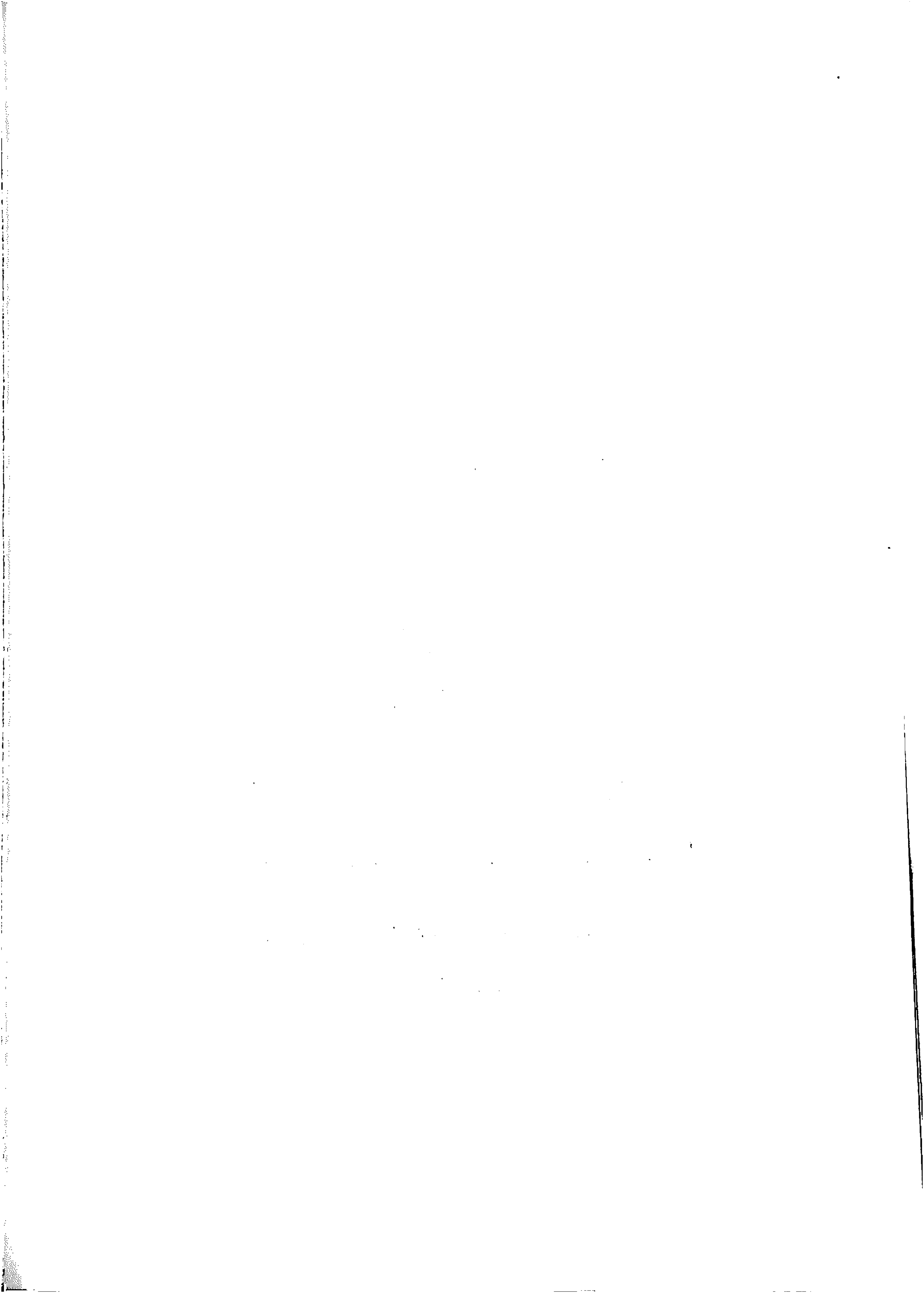
الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن العربي

وهو الإمام العارف بالله تعالى أبو عبد الله

محمد بن علي بن محمد بن العربي الطائي الأندلسي

رضي الله عنه





وبه الحول والقوة

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

من العبد الضعيف الناصح الشفيق المأمور بالنصح لإخوانه، والمشدد عليه في ذلك دون أهل زمانه محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الحاتمي وفقه الله تعالى إلى وليه في الله تعالى، وأخيه الركن الوثيق أبي محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي نـزيل تونس، أبقاه الله تعالى محفوظاً، وبعين الصون الإلهي والحماية ملحوظاً السلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أما بعد فإنني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو، وأصلي على نبيه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

المناصحة

أما بعد: يا أخي فإن النصح أولى ما تعامل به رفيقان وتسامر به صديقان، وقلما دامت اليوم صحبة إلا على مداهنة[1]، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «**مَا تَرَكَ الحقُّ لِعُمَرَ مِنْ صَدِيقٍ**»[2]، وقال أويس القرني رضي الله عنه لرجل من مراد: يا

---

(١) **مداهنة**: داهن مداهنة، ودهاناً: أظهر خلاف ما أضمره فلاناً: غشه وخدعه وداراه ولاينه (المعجم الوسيط).

(٢) قال النجم الغزي في الإتقان (١٦٠٥) وكذا العامري في الجد الحثيث (٣١٥): هذا غير معروف في كتب الحديث في حق عمر لا عنه ولا عن غيره كشف الخفاء (١١٥٥، ٢١٩٨).

أخا مراد إن الموت وذكره لم يتركا لمؤمن فرحاً، وإن علم المؤمن بحقوق الله تعالى لم يترك في ماله فضة ولا ذهباً. وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقاً، روينا هذا عن أويس رضي الله عنه من حديث مخلد بن جعفر عن محمد بن جرير عن محمد بن حميد عن زافر بن سليمان عن شريك بن جابر عن الشعبي عن رجل من مراد عن أويس رضي الله عنه، وكل إنسان يقبل النصح من غيره لامن نفسه إلا من وفقه الله تعالى، فحينئذ يلتذ بسماع معايب النفس لاسيما إذا أرسلتها يا أخي في مجالسك مطلقة من غير تعيين تقر لك بأن هذا هو الحق فإذا قلت لها: إياك عنيت بهذا الكلام، «وَالمؤْمِنُ مِرآةُ أَخِيهِ»[1]. وقد رأيت فيك ما أوجب علي أن أقول لك فيه شمخت النفس وقالت: سبحان الله إنما أنا مرآة نفسك رأيت في، ومثلي من يقال له هذا، لأن النفس عمياء عن عيوبها بصيرة بعيوب غيرها، فأدى نصحك لها في أمر واحد إلى ارتكاب محظورات كثيرة من الكذب والنفاق وقلَّ يا وليي أن تجد اليوم للناصح من صديق ولقد قلت في ذلك شعراً:

لـمَاَ لَزِمْـتُ البَحْـثَ والتَّحْقِيقَـا ... لَـمْ يَتْرُكَـا لِي فِي الأنَـامِ صَـدِيقَـا

ولعمر الله ما كذبت ولا قلت إلا ما وجدت، ويعلم وليي أبقاه الله تعالى أني ما عاشرته أيام إقامتي عنده إلا بالمناصحة، حتى ذكر لي يوماً على العشاء وقال لي مواجهة: إنك كثير الانتقاد، واحتج علي بمسألة إبراهيم بن أدهم، ثم استشهد بقول القائل:

وَعَيْنُ الرِضَـا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا[2]

(١) جزء من حديث طويل رواه الترمذي رقم(١٩٢٧) في البر والصلة، باب ما جاء في النصيحة، ورقم (١٩٢٨و ١٩٣٠)، وباب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، وهو حديث حسن وفي الباب عن ابن عمر، وتميم الداري، وجرير وحكيم بن أبي زيد عن أبيه، وثوبان. كما قال الترمذي. نقول: وحديث تميم الداري أخرجه مسلم مختصراً. (جامع الأصول) (٦/٥٦٣).

(٢) هو لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب انظر ديوانه (ص: ٩٠) جمع عبد الحميد الراضي نشر مؤسسة الرسالة بيروت تاريخ (١٩٧٦).

فأعربت له ـ وفقه الله ـ إن ذلك مقام من أحبك لنفسه، وأما من أحبك لك فلا سبيل، ولما كان حب الله إيانا لنا لا لنفسه نبهنا على معايبنا وأظهر لنا نقائصنا ودلنا على مكارم الأخلاق ومحامد الأفعال، وأوضح لنا مناهجها، ورفع لنا معارجها، ولما أحببناه لأنفسنا، ولم نتمكن في الحقيقة أن نحبه له ـ تعالى عن ذلك ـ رضينا بما يصدر منه مما لا يوافق أغراضنا وتمجه أنفسنا وتكرهه طباعنا. والسعيد هو الذي رضي بذلك منه تعالى، ومن سواه يضجر ويسخط فنسأل الله تعالى العفو والعافية في ذلك لنا وللمسلمين.

مناقب الشيخ القرشي

وقد فزت يا أخي ـ جعلني الله وإياك من الفائزين ـ في زمانك هذا بخلال لم أقدر أن أراها من غيرك، منها معرفتك بمرتبة العلم وأهله، وعدم تعريجك على الكرامات والأحوال.

ومنها انقيادك للحق وتواضعك له ونزولك إليه عند من وجدته، سواء كان ممن تلحظه العيون أم لا يؤبه له، ولم تلحظ منزلتك الدنيوية من تعظيم الناس لك وتقبيلهم يدك وإتيان السلاطين إلى بابك، وهذا غاية الإنصاف، ثبتك الله وإيانا.

ومنها قولك فيما لا تعلم لاأعلم وفيما تعلم أحب أن أسمعه من غيري فقد حزت والله يا وليي هذه الخصال التي تتطاير دونها رقاب الرجال، والمقام الذي لا تغيره الأحوال ولا تزيده حسناً ووضاءة رواتب الأعمال.

ثم بحثك الذي لم أره من غيرك في معرفة الأنام والزمان، واعتقادك أنه من فروض الأعيان من أعجب ما سمعته الآذان وتسامرت به الخلان وسارت به الركبان، ثم ما وهبك الله من الصولة والقوة على الفقهاء بدلائل المكارم، والفتوة الجارية مع براهين النبوة.

وأما أهل زمانك اليوم يا وليي فكما قال الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي رحمه الله: ضعف ظاهر ودعوى عريضة، فأول ما وصلت إلى هذه البلاد

سألت عن أهل هذه الطريقة المثلى، عسى أن أجد منهم نفحة الرفيق الأعلى، فحملت إلى جماعة قد جمعتهم خانقاه عالية البناء واسعة الفناء فنظرت إلى مغزاهم المطلوب ومنحاهم المرغوب بتنظيف مرقعاتهم، بل مشهراتهم، وترجيل لحاهم، غير أنهم يدَّعون أن أهل المغرب أهل حقيقة لاطريقة، وهم أهل طريقة لاحقيقة، وكفى بهذا الكلام فساداً، إذ لا وصول إلى حقيقة إلا بعد تحصيل الطريقة.

وقد قال الإمام المقدم والصدر المبرز أبو سليمان الداراني رحمه الله: **وإنما** حرموا الوصول وهي الحقيقة بتضييعهم الأصول وهي الطريقة، وقد شهدوا على أنفسهم بفراغهم من الحقيقة، فهي شهادتهم بعينها أنهم على غير الطريقة وشهادتهم لنا أنا على الحقيقة شهادة منهم لنا بتحصيل الطريقة وهاتان جهالتان منهم وهم لايشعرون.

ذم أهل الزمان

فالزمان ياوليي اليوم شديد، شيطانه مريد، وجباره عنيد علماء سوء يطلبون ما يأكلون، وأمراء جور يحكمون بما لايعلمون، وصوفية صوف بأعراض موشحون وموسومون، عظمت الدنيا في قلوبهم فلا يرون فوقها مطلباً، وصغر الحق في أنفسهم فأعجلوا عنه هرباً، حافظوا على السجادات والمرقعات والمشهرات والعكاكيز وأظهروا السبحات المزينة كالعجائز، طغام، أطفال، صبيان الأحلام، لاعلم عن الحرام، يردهم، ولازهد عن الرغبة في الدنيا يصدهم، اتخذوا ظاهر الدين شركاً للحطام، ولازموا الخوانق[١] والرباطات رغبة فيما يأتي إليها من حلال أو حرام، وشمروا أردانهم[٢]، وسمنوا أبدانهم، فوالله ماأراهم إلا كما حدثني غير واحد، منهم: أبو الوليد بن العربي وأبو عبد الله بن عيسون وأحمد الشاهد عن القاضي أبي بكر بن العربي المعافري قال: حدثني أبو المطهر سعد بن عبد الله

(١) **الخوانق**: مفردها خانقاه وهو مكان للصوفية .

(٢) **الأردان**: مفردها ردن وهو كم القميص.

الأصبهاني، قال: حدثنا أحمد بن أحمد الأصبهاني قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: ثنا محمد بن أحمد بن علي قال: ثنا أحمد بن الهيثم قال: ثنا مسلم بن إبراهيم قال: ثنا بشر بن مطر بن حكيم بن دينار القطيعي قال: سمعت عمرو بن دينار ـ وكيل آل الزبير ـ يحدث مالك بن دينار قال حدثني شيخ من الأنصار بحديث عن سالم مولى أبي حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليجاءن بأقوام يوم القيامة معهم من الحسنات مثل جبال تهامة، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار»** فقال سالم: يارسول الله بأبي أنت وأمي حد لنا هؤلاء القوم حتى نعرفهم فوالذي بعثك بالحق إني أتخوف أن أكون منهم، قال: **«يَاسَالِمُ أَمَا أَنَّهِمْ كَانُوا يَصُومُونَ وَيصَلُّونَ»**[1] وفي حديث آخر **«وَكَانُوا يَأْخُذُونَ وَهْناً مِنَ اللَّيْلِ وَلكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيءٌ مِنَ الحَرامَ»** وفي رواية من طريق آخر **«شَيءٌ مِنَ الدُّنْيا وَثَبُوا عَلَيْه فَأَدْحَضَ الله عَزَّوَجلَّ أَعْمَالَهُمْ»**. فقال مالك بن دينار هذا والله النفاق، فأخذ المعلى بن زياد بلحيته فقال: صدقت (يا أبا الخير).

والله ياوليي لو رأيتهم في صلاتهم ينقرونها، وفي صفوفهم لايقيمونها، يجعل أحدهم بينه وبين صاحبه في الصف قدر ما يدخل فيه ألف شيطان، ثم إذا جئت أن تسد ذلك الخلل تراهم قد قطبوا وجوههم، فإن غفلت ووطئت سجادة أحدهم لكمك لكمة حيث جاءت منك وقد يكون فيها حتفك، وهذه وأشباهها هي الطريقة التي أهل زمانك عليها، ويرحم الله أبا القاسم القشيري حيث أدرك من تحلى بحلية القوم في ظاهره وتعرى عنهم في باطنه فأنشد فيهم يقول:

أَمَّا الخِيَامُ فإِنَّها كَخِيَامِهِمْ ... وَأَرَى نِسَاءَ الحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا[2]

هذا الذي قد اشترك معهم في الزي الظاهر، وأما اليوم فلا خيام ولانساء

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث «الاحياء» (٣/ ٢٠٠): أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف، وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

(٢) أورده القشيري في الرسالة (ص: ١٨) تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف طبعة دار الشعب (١٤٠٩ ـ ١٩٨٩).

بإجماع من القوم، وإن الموت الأخضر عندهم طرح الرقاع بعضها على بعض، وذلك شعارهم رضي الله عنهم، فقام هؤلاء فقالوا: إنما لنا لبس مرقعة خاصة ولم يلحظوا ماأريد بها، فتأنقوا في الثياب المطرحة والأعلام المشهرة، وخاطوها على وزن معلوم وترتيب منظوم تساوي مالاً عظيماً، وأفسدوا عليها ثياباً وسموها مرقعة، فرحم الله سيد هذه الطائفة أبا القاسم الجنيد حيث أنشد لما رأى فساد الحال:

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوْا صَارَ التَّصَوُّفُ مَخْرَقَه

صَارَ التَّصَوُّفُ رَكْوَةً سَجَّادَةً وَمِذْلَقَه

صَارَ التَّصَوُّفُ صَيْحَةً وَتَواجُداً وَمَطْبَقَه

كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ذِي سَنَنُ الطَّرِيقِ المُلْحَقَه

صفات أهل الطريق

والله ما أعلم أهل الطريق كذا وما كان الطريق إلا بالقعود في مرابض الكلاب مجاهدة، وتحمل الأذى وكفه رياضة، والرحمة والشفقة والعطف على الفقراء والمساكين والمسلمين كافة تحقيقاً، ومعرفة أين هم من صفة أهل الله كما نعتهم شيخ الطائفة العالية رضي الله عنهم، على ماحدثنا أبو محمد بن يحيى قال: ثنا أبو بكر بن أبي منصور وحدثنا أبو الفضل أحمد قال: ثنا أحمد بن عبد الله: قال ثنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن مقسم قال: ثنا عباس بن يوسف الشكلي قال: حدثني محمد بن عبد الملك قال: قال عبد الباري: قلت لذي النون المصري رحمه الله: صف لي الأبدال قال: إنك تسألني عن دياجي الظلم (لأكشف لك عنها) يا عبد الباري، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم لمعرفتهم بجلاله. فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم النور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللاً من نسيج مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب فهي معلقة

بمواصلته، فهممهم إليه سائرة، وأعينهم بالغيب إليه ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من قربه به، وأجلسهم على كراسي أطباء أهل معرفته، ثم قال عزَّوجل لهم: إن أتاكم عليل من فقدي فداووه، أو مريض من فرقي[1] فعالجوه، أو خائف مني فأمنوه، أو آمن مني فحذروه، أو راغب في مواصلتي فمنوه، أو راحل نحوي فزودوه، أو جبان في متاجرتي فشجعوه، أو آيس من فضلي فعدوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو محب لي فواطئوه، أو معظم لقدري فعظموه، أو مسيء بعد إحسان فعاتبوه، أو مسترشد نحوي فأرشدوه، إلى آخر القصة على حسب ماذكرناه في كتاب «البغية» لنا مستوفى، فهذه أحوال العارفين يا وليي وهكذا تكون عمارة القلوب.

وأما أهل زمانك فوالله لو اطلعت عليهم لرأيت إن نظرت إلى وجوهم عيوناً جامدة، متحركة غير هامدة. وإن نظرت إلى نفوسهم رأيت نفوساً سامدة، وإن نظرت إلى قلوبهم رأيت قلوباً لاهية من العمارة العلوية والقدسية خالية على عروشها خاوية، آجاماً لأسود ضارية، ومرابض لذئاب عاوية، نسأل الله تعالى عند رؤيتهم العافية.

صفات الصفوة من خلق الله

أين بهم، ياوليي من قوم وصفهم أبو الفيض رحمه الله تعالى حيث قال: إن لله لصفوة من خلقه وإن لله لخيرة، قيل له: ياأبا الفيض ماعلامتهم؟ قال: إذا خلع العبد الراحة، وأعطى المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة، ثم قال:

مَـنَـعَ الـقُـرآنُ بِـوَعْـدِهِ وَوَعِـيـدِهِ ... مُقَلَ العُيونِ بِلَيْلِهَا أَنْ يَهْجَعُوا[2]

فَهِمُوا عَنِ المَلِك الكرِيمِ كَلَامَهُ ... فَـهْـماً تَـذِلُّ لَـهُ الـرِّقَابُ وَتَـخْـضَـعُ

فقال له بعض من كان في مجلسه: من هؤلاء القوم ياأبا الفيض رحمك الله؟

---

(١) فرقي: خوفي وجزعي. (المعجم الوسيط)

(٢) يهجعوا: يناموا

قال: ويحك هؤلاء قوم جعلوا الركب لجباههم وساداً، والتراب لجنوبهم مهاداً، هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الأزواج، وحركهم بالإدلاج، فوضعوه على أفئدتهم فانسرحت، وضموه إلى صدورهم فانشرحت، وتصدعت هممهم به فكدحت، فجعلوه لظلمتهم سراجاً، ولسبيلهم منهاجاً، ولحجتهم إيلاجاً، يفرح الناس وهم يحزنون، وينام الناس ويسهرون، ويفطر الناس ويصومون، ويأمن الناس ويخافون، فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون مشمرون، يبادرون من الفوت، ويستعدون للموت إلى آخر القصة. كما حدثناه أبو الحسن علي بن موسى سنة أربع وتسعين وخمسمائة قال: حدثنا محمد بن عبد الله، قال: ثنا سعد بن عبد الله قال: ثنا أحمد بن أحمد قال: ثنا أحمد بن عبد الله قال: ثنا أبي قال: ثنا أحمد بن محمد بن مصقلة قال: ثنا أبو عثمان الخياط عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري وهو كما علمت ياوليي من ساداتنا فهذا وصفه لأولياء الله وبهذا حلاهم وهكذا شاهدهم ورآهم. ولقد لقيت بهذه البلاد من يلبس سراويل الفتيان، ولايستحي في ذلك من الرحمن، لايعرف شروط السنن والفرائض، ولايصلح أن يكون خديماً في المراحض، ومع هذا ياوليي فهم والله الصدف الذي يخفي رفيع الدرر، والسياج على الروضة اليانعة ذات الزهر، يدخل بينهم الصادق والصديق فيجهل، والعارف المتمكن فيترك ويهمل، فإنه يحمل ماهم عليه لاشتراكهم في المسكن، ومابينه وبينهم معاملة في شيء ولقد وقع بيدي منهم بمصر في الخانقاه بالقاهرة كهل يقرب أن يكون رجيلاً لابأس به ففرحت به لما لم أجد غيره، واجتمعت مع شيخ يدعى فيهم شيخ الشيوخ بأربيل، هكذا قال لي بنفسه - ورأيته يعطي النصف من نفسه للمتكلم معه رضي الله عنه فزعم أن ليس لله في المغرب من يعرف الطريق إلى الله ولايتعرفه، فأراد وليك أن لايشافهه بخطاب ولايتعرض إليه، ثم رأيت ذلك قاصمة الظهر وقارعة الدهر، فأبدينا له يسيراً مما وهبك الله من الأسرار، ثم أعقبناه ببعض أحوال سيدنا أبي مدين خلاصة الأبرار فبقي مبهوتاً بما سمع وقال: ماتخيلت أن يكون مثل هذا في بلاد المغرب، ثم ألقى

عليه بعض أصحابنا مسألة من الحقائق الإلهية المتوجهة على إيجاد جهنم، فوالله مازاد على أن قال: لاأدري شيئاً وأنصف من نفسه، واعترف بنقصه، وهدأت شقاشقه[١]، وطفئت بوارقه، فقلت له: هذا حالك معي وأنا أنقص حظاً، وأحقر قدراً من أن أذكر فيهم، أو أنسب إليهم، فكيف بك لو لاحظت الكبراء والسادة النبلاء، الكائنين بالمغرب الغرباء، فسلم واستسلم، وحمدت الله على ماألهم وعلم.

وأما أهل السماع والوجد في هذه البلاد فقد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لاتسمع إلا من يقول لك: رأيت الحق وقال وفعل وصنع، ثم تطالبه بحقيقة يمنحها أو بسراء استفادة في شطحه فلا تجد إلا لذة نفسانية وشهوة شيطانية يصرخ على لسانه الشيطان فيصعق مادام المغرور الآخر بشعره ينهق. فلا أشبههم إلا براعي غنم ينعق بغنمه فتقبل وتدبر لنعيقه ولاتدري فيماذا ولا لماذا فواجب على كل محقق في هذا الزمان ممن ينظر ويقتدي به المريد الضعيف أن لايقول بالسماع أصلاً ويقطعه قولاً فصلاً، وقد وأوضحنا مقامه لأهل هذه البلاد ومايتطرق إليه الفساد، واحتجوا علينا بأحوال من سمع من الشيوخ في الرسالة وغيرها فأوضحنا مبهمها وأعربنا معجمها فأقروا بنقصه في مراتب الوجود، فمنهم من عدل عنه ومنهم من قام فيه على معرفته بنقصه. وليعلم وليي وفقه الله تعالى إني لما قرأت بالحرم الشريف المكي على الناس ماذكرته لك في حق المنتسبين للصوفية وذم أحوالهم ثقل ذلك على شخص فقال: مادعاه إلى هذه، والإعراض عن هذا كان أحسن، وماأشبه هذا الكلام، فزاد عندي اعتراضه تقوية إن هذا هو الحق لكونه ثقل عليه، ولقد عمي هذا القائل عن الأصول التي استندت إليها في فعلي هذا وهو يسلمها وقد قرعت سمعه غير مرة ولم يعب عليهم بل استحسن ذلك، فلما وقع ذلك الذم في أهل زمانه رأى أن ذلك فضولاً لكونه في ذلك الزمان، فخاف أن يتطرق إليه الذم في نفسه فحزن، ولو أنصف لبحث عن نفسه.

---

(١) شقاشقه: يقال: هدرت شقشة فلان: ثار، وهدأت شقاشقه: هدأت ثائرته.

الأصول التي أستند إليها في ذم الزمان

وأما الأصول التي استندت إليها في ذلك فكثيرة جداً، روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه يوم فتح مكة في القرن الفاضل لما فقد عقد من عنق بعض أهله تأوه وقال: ارتفعت الأمانة اليوم من بين الناس وحكم بتلك النازلة الواحدة على الزمان ذكره في السير في غزوة فتح مكة. والأصل الآخر بينته عائشة رضي الله عنها لما نظرت إلى زمانها وأهله وماهم فيه من البخل والمذام تأوهت وقالت: يرحم الله لبيداً حيث يقول:

ذَهَبَ الذِّينَ يُعاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيْتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[1]

ثم قالت: كيف به لو أدرك زماننا فذمت زمانها وأهله؟ وقد روينا عن غير واحد عن ابن القشيري وعن الغانمي، كلاهما عن القشيري رحمه الله، أنه قال في رسالته يذم أهل زمانه، وقد سمعها هذا المعترض علي واستحسن ذلك منه، ثم قال ولم يبق في زماننا من أهل هذه الطائفة إلا أثرهم:

أَمَّا الخِيَامُ فَإِنَّها كَخِيَامِهِم وَأَرَى نِسَاءَ الحيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا[2]

حصلت الفترة في هذه الطريقة لابل اندرست الطريقة بالحقيقة، وذمهم بأشد الذم في أول الرسالة، ولتداولها بين أيدي الناس أضربنا عن حكاية قوله. وروينا عن أبي حامد وغيره عن أبي المغيث في كتاب «أنيس المنقطعين» له من حديث ابن المهلب قال: مررت بالساحل فرأيت شاباً قد احتفر لنفسه حفرة في الرمل فسألته فتأوه ثم قال يذم أهل زمانه: توعرت السبل وقل السالكون لها، قد افترشوا الرخص، وتمهدوا الزلل، واعتلوا بزلل الماضين إلى مثل هذا الكلام، ثم قام فمشى على الماء حتى غاب عني، أرأيت قط هذا يتفق لمن تكلم فيما لايعنيه، وروينا عن غير واحد من حديث عبد الرحمن بن الحسن عن هارون عن أبي معاوية

---

(١) انظر ديوانه (ص: ١٥٣) تحقيق الدكتور إحسان عباس طبع حكومة الكويت (١٩٨٤).

(٢) انظر الرسالة القشيرية صفحة (١٨) تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر والدكتور محمود بن الشريف طبعة دار الشعب ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩.

عن الأعمش عن أبي صالح قال: لما قدم أهل اليمن زمان أبي بكر ﷺ وسمعوا القرآن جعلوا يبكون فقال أبو بكر رضي الله عنه: هكذا كنا ثم ثم قست القلوب. وثبت أيضاً تقريع النبي ﷺ لأصحابه المعذبين بمكة على إسلامهم ومنهم خباب رضي الله عنه وقاسى بلاء شديداً من أجل إسلامه، قال خباب رضي الله عنه: «شكونا إلى النبي ﷺ مانلقاه من البلاء وقلنا ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ فجلس محمراً وجهه، ثم قال: «**وَالله إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بَاثِنَتَيْنِ مَايَصْرِفُهُ عَنْ دِينِهِ شَيءٌ وَيمُشَّطُ بَأَمْشَاطِ الحدِيْدِ مَابَيْنَ عَصَبٍ وَلَحْمٍ مَايَصْرِفُهُ عَنْ دِينِه شَيءٌ**»[1].

يأيها المعترض هذه الأصول التي استندت إليها في ذم أهل وقتي لاحشرني الله معهم، ولا أماتني على حالتهم، هلا كنت ناصري في قولي هذا وتعرف أنه الحق، وأن اليوم الحال على ماوصفناه، وكنت تأتيني باكياً على نفسك وأنا أيضاً كذلك عسى الله أن يرحمنا أرضيت لنفسك أن تكون منافقاً مداهناً وللمداهنين إماماً؟ ولا والله لاأرضى بهذه الحالة، فتب إلى الله وارجع إليه فإنه يرجع إليك، وتعال نقم مأتماً ومناحة على التقصير في العمر اليسير، وعلى الاشتغال بالترهات، والفرح بالخزعبلات بل أضل الأباطيل، ونقول: والله إنه كل من ثقل عليه هذا الكلام فهو بتلك الصفة التي وصفنا، ولهذا قلق ولو كان بريئاً منها سكن كما سكن عند ذكرنا ذم السراق والقطاع وأشباههم، ولما كان له في هؤلاء مدخل فر إلى الاعتراض ليزداد من الله بعداً في رده الحق، وليس اعتراضه علينا في هذا بأول دمع جرى على طلل، فإنه لم يزل كل من يتكلم في معايب النفس وأحوالها ويبدي نقائصها، ويذم شأنها على التعيين وعلى غير التعيين في كل زمان مذموماً في زمانه لعدم موافقته أغراض النفوس، فإذا انقرض زمانه ومات ونشأت طائفة أخرى بعده، عند ذلك يعرف قدر ماجاء به ويقال: قال فلان رضي الله عنه هكذا كان الناس.

---

(١) رواه البخاري (٧/١٢٦) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، وأبو داوود رقم (٢٦٤٩) في الجهاد، باب الأسير يكره على الكفر والنسائي (٨/ ٢٠٤) في الزينة، باب لبس البرود.

بين الشيخ الأكبر وبين نفسه

ثم أعرف وليي أبقاه الله تعالى بما طرأ بيني وبين نفسي، رأيت نفسي في هذه البلاد مسجونة مقهورة، فإني كما يعلمه وليي ممن يقول بوجودها ولايصح عندي أبداً موتها عن صفاتها لمعرفتي بحقائقها ومكانها، ولما رأيت الله تعالى قد فتح إلى قلبي باب الحكمة وأجري فيه بحارها وسبح سري في لجة ثبجها حتى أني والله لأنظر إلى معظم البحر إذا اشتدت عليه الرياح الزعازع، فعلاً موجه وارتفع دويه ثم أنظر إلى تموج بحر المعارف والأسرار في صدري، فأجد معظم ذلك البحر بما وصفناه من تلاطم الأمواج واشتداد الرياح، ساكناً لا حراك له عند تموج بحر الحكم في صدري واصطفاقه لا سيما في مكة المشرفة، فداخلني من ذلك رعب شديد وجزع عظيم وخوف متلف، فعزمت على قطع الميعاد وأن لاأقعد للناس فأمرت بالقعود والنصيحة للخلق قسراً وحتماً واجباً، فقعدت رفيع الكلام مصلت الحسام، ثم أخلو بنفسي حيث مسكني فأزن المواهب بالحال التي أنا عليها وفيها فلا أجد بينهما نسباً يربط، ولا سبباً يضبط، فخفت والله ياوليي مكر الله بي واستدراجه إياي، فخلوت بنفسي وقد داخلني من ذلك مالا يعلمه إلا الله تعالى ولا أجد طريقاً أدخل منه لتمحيص نفسي، وقد انسدت علي المسالك بفنون الحقائق الأول والمعارف إلى أن لطف الله بي برؤيا رأيتها وجدت بها الظفر على نفسي وإقامة الوزن عليها.

رؤيا الشيخ

وذلك أني رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فلما حصلت فيها ولم أكن رأيت ناراً ولا حشراً ولا حساباً ولا شيئاً من أهوال القيامة وجدت في نفسي راحة عظيمة لايقدر قدرها وسرورها وحمدت الله تعالى كما ورد في القرآن عنهم.

حسابه لنفسه وحواره معها

فلما استيقظت علمت أن في حالي بعض اختلال وأن نفسي ادعت فوق حالها

من جهة ما أعطاها الله من العلم، ولو كانت متحققة بالحق تحققاً عقلياً مقدساً إلهياً يغنيها عنها لم تلتذ بدخول الجنة ولا عقلت الراحة وأشغلها التنزه في جلال الله عن النظر إلى راحتها والتفاتها إلى نجاتها من أهوال الوعيد، فأرادت أن تقيم عليَّ الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الإنسانية ومراتبها، فلم أسمع لها وقامت حجتي عليها، وآذنتها بقصورها وعظيم دعواها في شيء هي دونه وحمدت الله الذي أظفرني بها.

الشيخ يعرض أحوال نفسه على الكتاب والسنة

فقلت لها: يا نفس وعزة من جبلك على المخالفة وجعلك محلاً لكل وصف مذموم على دعواك حتى أعرض أحوالك كلها على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإن وافقت ذلك ولم أجد منك خللاً سلمت لك فيما أردت أن تقيمي علي من سلطانك والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] قال ابن مسعود رضي الله عنه: كن أنت المحدث إذا سمعته يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وإن وجدتك دون ذلك وقامت الحجة عليك فأنا ألطف بك وأرحمك بأن أمشي بك على أحوال أهل الصفة الذين تنتسبين إليهم، وعلى أحوال الصفوة من الصحابة الأعلام فيهم فإن خرجت مع واحد منهم في حال ما فأنا أنزلك معه وأرضى عنك، وإن لم أجدك مشيت بك على تابعيهم على نحو ما فعلت بك مع الصحابة فإن قصرت عن أحوالهم مشيت بك على تابعي تابعيهم وتابعي تابعي تابعيهم فإما أن تقفي مع واحد منهم، وإما أن تقصري عن شأوهم فالنار أولى بك، وأجعل حكمتك ومعرفتك كدرهم زائف عند صيرفي ناقد.

فقالت لي وقالت بعض حق: أما النبي عليه الصلاة والسلام فلا أعرض حالي مع حاله أدباً معه فإن فلك النبوة ليس لنا فيه قدم ولا تقوم لك به علي حجة فإنه البحر الذي يغترف منه الخاص والعام، فإن شددت علي به رخصت أنا على نفسي به وتتعارض الحجج، وكل سنة وأنا أسقط لك الدعوى من أول وهلة وأهجم على الرخص وأتخذها سنة كما وردت وأقنع بالنجاة من النار خاصة وأحرمك التنزل في

المنازل العلا فيما بقي من عمرك، وكذلك القرآن فإنه البحر الأعظم الذي لا يدرك قعره إذ ليس له قعر فيدرك ولا ساحل فيبلغ بل فيه هلك الهالكون ونجا المفلحون. قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦] تالله لو عرضت الملائكة والنبيون والمرسلون أجمعون أحوالهم على آية من القرآن على حد ما يعلمه الله من أسرار ما أودع فيها من الغيوب لبقي الكل إلى جانبها كلا شيء عندها، لقد قيل في أول آية منه، وهي قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] يتيه العالم أسفله وأعلاه ولا يعرف طريقه أبداً ولا يفي أحد بحقيقتها فإن في الغيب أمور لو بدا منها لمحة بارق لأعلى عالم مشاهدة من العالم وأقواه إيماناً لتردد فيها واتهم إيمانه، فهم جهلوا الأسماء فما ظنك بما تنطوي عليه المسميات من المعاني، وذلك لعلو الأمر عن مراتب العقول وانفراد الحق بالخلق والإيجاد دون الخلق ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤] ولما لم يكن لنا خلق لم يكن لنا علم فما أعطانا فمنة منه، وعلمه لا يتناهى، فليس بإنصاف منك أن تعرض حالي على كتاب الله الأقوى والأقهر ولكن حسبك من دون القرآن و ـ النبوة من المؤمنين فجل معي في مراتب الولاية، وأنا المنقادة السميعة السهلة المطيعة، أرجع معك علي باللائمة إن قصرت، وأنصفك من نفسي إن أحصرت، ولا تبقى في محل الغبن والخسران، فإنك أنا كما أنا أنت، فلست غيري ولست غيرك وما لك علي حجة، وقد أعطيت يد الانقياد في التمحيص والاختبار.

فتعجبت والله من نفس تتقلد لهذا المقدار فبلوت كلامها وما جاءت به فوجدتها قد انطوت على مكر وخداع وأمر هائل لا يستطاع، وقد شابت الأرى بالشرى،[١] وأبطنت الحرب في السلم، فتعاميت عنها في ذلك وعملت كأني لم أشعر بخداعها المهلك وحررت نفسي معها في المناظرة ولم أنتق[٢] لها من أحوالهم إلا ما لم

(١) الأرى: العسل والشرى هو الحنظل . (المعجم الوسيط).

(٢) أنتقي: أختار: وهو مجزوم بحذف حرف العلة من آخره. (المعجم الوسيط).

يخطر لها على بال، ولا اتصفت به في حال، وعدلت عن كل حال رأيت لها بعض اشتراك، ولو علمت أني أجد ولياً من أولياء الله تعالى لم يمتز عنها بحال البتة لم أناظرها بأحوالهم ولا أخذت في مناقضتها ابتداء في سهولة انقيادها وإظهار نصيحتها وتركتها بتعرضها لمعرفتي بنقصها وإنها تعجز عن ذلك.

الشيخ يعرض على نفسه حال أهل الصفة

فقلت لها: هات أخرجي أسنى ما تدعينه وأعلى ما تحتفظينه وتعنيه وأنا أعرض عليك أولاً حال أهل الصفة وما كانوا عليه مجملاً من غير تفصيلهم بأسمائهم رغبة في التخلص في أسرع حال فقالت: قل، قلت لها: حدثنا محمد بن عيسون قال: ثنا أبو بكر بن عبد الله قال: ثنا سعيد قال: ثنا أبو الفضل قال: ثنا أحمد بن عبد الله قال: ثنا أبو بكر بن مالك قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: ثنا وكيع قال ثنا فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه: رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته، قال بعض علمائنا: والله ما اجتمع لهم ثوبان ولا حضر لهم من الأطعمة لونان، ناشدتك الله يا نفس هل كنت قط أفقر منك الآن في حرم الله تعالى فقالت: لا، فقلت لها: الحمد لله ترين لك قميصاً وإزاراً وسراويل وجبة وعمامة ونعلاً وبردة وخبزاً نقياً ولحماً طرياً وحلواء، ويخدمك الرؤساء ويمتثل أمرك، تقولي افعل فيفعل، تقولي: لا تفعل فلا يفعل، أين أنت منهم أي أهل الصفة ماتوا والله بحوائجهم في صدورهم لم يستطيعوا لها قضاء، على ما رويناه من حديث سليمان بن أحمد عن هارون بن ملول عن أبي عبد الرحمن المقبري عن سعيد بن أبي أيوب عن معروف بن سويد الحزامي عن أبي عشانة المعافري عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ يقول فيهم **«فُقَراءُ المهاجرين الذين تُتقى بِهِمُ المَكَارِهُ يَموتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ في صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَها قَضاءً»**[1] أخبر بهذا عن الله عنهم، بالله يا نفس

(١) رواه أحمد في (المسند ٢/ ١٧٧).

حصلت في هذا المقام؟ قالت: لا والله، قلت لها: فلست منهم استحي من الله وارجعي على عقبك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء فقالت: عليَّ بغيرهم فليس لي هنا قدم.

مقايسة الشيخ بين نفسه وبين ياسر ومسعود والخطاب

قلت لها: فهذا عمار بن ياسر روينا من حديث أحمد بن جعفر بسنده عن عمار رضي الله عنه أنه قال وهو يسير على شط الفرات: اللهم لو أعلم أن أرضى لك عني أن أتردى فأسقط فعلت، لو علمت أن أرضى لك عني أن ألقي نفسي في هذا الماء فأغرق فيه فعلت، ناشدتك الله يا نفس هل خطر لك هذا قط في رضى الله لا تبغين به بدلاً؟ قالت: لا والله فانتقل بي عن هذا.

قلت لها: نعم هذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، روينا بالسند المتصل إليه أنه قال ألا حبذا المكروهان الموت والفقر، وأيم الله إن هو إلا الغنى والفقر وما أبالي بأيهما ابتليت، إن كان الغنى إن فيه للعطف وإن كان الفقر إن فيه للصبر، ناشدتك الله يا نفس هل عاملت الله قط من عمرك بمعاملة أثمرت لك أن تقطعي على الله بمثل هذا وتأمني من الفتنة في الغنى، والكفر في الفقر؟ وقالت: النصف أما القطع فلا، إنتقل بي عن هذا فقد أر بى علي.

قلت لها: نعم هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه روينا بالسند المتصل إليه أنه لما أسلم قال له النبي ﷺ: «يَا عُمَرُ استُرهُ»[1]، قال رضي الله عنه قلت: والذي بعثك بالحق لأعلننه كما أعلنت الشرك، ناشدتك الله يا نفس هل قمت لي قط في دين الله تعالى حامية عنه بأمر بمعروف تعيَّن عليك أو نهي عن منكر في موطن دونه السيوف الحداد وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه، قالت: لا والله

---

(١) قصة إسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه انظر إلى السيرة النبوية.

وإنما قاربت هذا المقام ولكن بسياسة وطنت بها نفوس الأعداء بحيث إن غلب على ظني الأمن والعافية في دمي قلت لها: فارجعي، قالت: نعم هات غيره.

مقايسة مع ثوبان وعثمان وعلي

قلت: هذا أبو عبد الله ثوبان مولى رسول الله ﷺ روينا عنه بالسند الصحيح أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**من يتقبل لي واحدة تقبلت له الجنة**»، قال: أنا يا رسول الله قال: «**لا تَسْأَلْ أَحَداً شَيْئاً**»[1] فكان رضي الله عنه ربما سقط السوط من يده وهو على بعيره فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه حتى ينـزل إليه ويأخذه، ناشدتك الله يا نفس، هل أقدمت في مخاطباتك هذا الإقدام على أمر مجهول، ثم لو أقدمت عليه هل كنت تفين به هذا الوفاء ولا تجنحين إلى تأويل فيه لحصولك في مقام أنت فيه بحكم التخيير قالت: كل ذلك لم يكن مني، قلت لها: فلا مع الأحرار أنت ولا مع الموالي فصغرت وقالت: انتقل بي عن هذا.

قلت: نعم، هذا عثمان بن عفان رضي الله عنه، روينا بالسند الصحيح عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت، ناشدتك الله يا نفس هل فعلت هذا مع أصحابك قط آثرتيهم باللطيف واستأثرت بالخشن؟ فقالت: لا والله بل كنت على أحد وجهين معهم، إن لم يكن عندي طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه، وإن كان عندي أرق منه أكلت وحدي ذلك مثل الحلواء والخشكنان[2] وغير ذلك، وأقول: هذا غذاء لين لي، وألبّس على نفسي بهذه الترهات حتى لا أتنغص به عند أكله وأقول: هؤلاء الإخوان في مقام التربية فينبغي أن لا أزرع حب الشهوات في قلوبهم بإطعامي لهم مثل هذا، ومقامي لايؤثر فيه مثل هذا الطعام فلا بأس بتناولي إياه فآكله على هذا الحال، وقد عميت عن مطالبة الحق في موازنة المعاشرة وأدناها أن أشاركهم في خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ولا شك أن عثمان رضي الله عنه

---

(١) رواه مسلم رقم (١٠٤٣).

(٢) معروف تكلمت به العرب قديماً (شفاء الغليل ص٨٧). وهي خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة وتملأ بالسكر واللوز، أو الفستق وتقلى (فارسي) المعجم الوسيط (١/ ٢٣٥).

ما فعل هذا في بدايته فنجد عنه مندوحة وإنما فعل هذا بعد التسليك قلت لها: بارك الله فيك يا نفس إذ أنصفتيني، قالت: الحق أحق أن يتبع، هات غيره.

قلت لها: نعم، هذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه باب مدينة العلم النبوي[١] وصاحب الأسرار وإمامها، روينا بالسند الصحيح عن ضرار بن ضمرة الكندي قال: أشهد بالله لقد رأيت عليًا في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمايل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم - أعني اللديغ ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: ياربنا ياربنا - يتضرع إليه - ثم يقول للدنيا: أبي تغررت ألِي تشوقت؟ هيهات هيهات غري غيري قد أبتتك ثلاثاً، فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطرك كبير أواه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. روينا من حديث نوفل البكالي قال: رأيت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه خرج فنظر إلى النجوم فقال: يا نوفل أراقد أنت أم رامق[٢]؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين، فقال: يا نوفل طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً وماءها طيباً والدعاء والقرآن دثاراً وشعاراً، فرضوا الدنيا على منهاج عيسى عليه السلام، يا بحوراً تحتوي عليها هذه الألفاظ الرائقة البليغة ليس لها سواحل، ناشدتك الله يا نفس، هذا علي رضي الله عنه على تمكنه فيما تدعينه من المقام والحال قد علم المقام وعمله، وأحكمه ووفى الحقائق حقها على أتم الوجوه، ولم يجنح إلى تلويحات الأحوال كما فعلت أنت وأكثر العارفين في زمانك الذين انبسطوا بعد قبضهم، وأنسوا بعد هيبتهم، وجمعوا المال بعدما كانوا رموا به، فرجعوا فرجع عنهم، فتخيلوا أنهم في الحاصل وهم في

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٧٢٥) في المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولفظه عند الترمذي: أنا دار الحكمة وعلي بابها وإسناده ضعيف وقال الترمذي: هذا حديث غريب منكر، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٢٦) من حديث ابن عباس وجابر، وأسانيده ضعيفة قال الدارقطني في «العلل» إنه حديث مضطرب غير ثابت، وانظر كلام الحافظ ابن حجر عليه في رسالة طبعت عقب «المشكاة» (٣/ ٣١٤ و ٣١٥) طبع المكتب الإسلامي «المقاصد الحسنة» للحافظ السخاوي

(٢) رامق: يقظان (المعجم الوسيط).

الفائت، انظري يا نفس تمكنه في المعارف، وتبرزه في صدور المواقف، وضربه بيده إلى صدره فيقول: إن ههنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة؟ وهذا عمله في خلوته يخاطب دنياه بلسان مولاه توحيداً مكملاً، وتمييزاً محققاً لم يخلط بين الحقائق، ولاداخل الرقائق بعضها على بعض، أحكم الحال والمقام، وعلم أنها ليست بدار مقام فعاملها معاملة الراحل، فعل الحكيم الحازم لم تحجبه مخاطبته لدنياه بلسان الهجر والقلا،[١] وتحسر على قلة الزاد وبعد الطريق، وذكر الوحشة بعد تحصيل الأنس وتغبيطه الدارجين على منهاج من وجد شيئاً من غير شهوة، فلم يعلق بقلبه كون، ولم يحجبه ذلك كله عن تحققه في المشاهدة، بل ذلك تمكين على تمكين حيث أعطى الموطن حقه، وأنصف ربه ونفسه ودنياه وآخرته فبقي حراً في وقته، أتى كل ذي حق حقه في نفسه، أنشدك الله يا نفس على معرفتك القاصرة ومشاهدتك الدانية، هل صاحبت هذا الحال استصحاب هذا الإمام؟ قالت: لا والله إنما هي بوارق تلمع، وأهلة تطلع في أوقات دون أوقات، والغالب الشتات بل ندعي، ومن رأيت من المشيخة التصرف فيها والأخذ من طيباتها من جهة حقائق الإيجاد السلبي، والاستخلاف الذي صح لي، وهو نقص في الحكمة، حيث لم أكن مثل علي رضي الله عنه بحكم الموطن، والله مالي شبه إلا بمن غاط في المسجد وصلى في المرحاض، وهكذا كل من وسع على نفسه في الدنيا من عال ودون، فالكل والله تافه، وفي بيداء العماية تائه، إنا لله وإنّا إليه راجعون، لولا أني أريد أن أقف على أحوال هؤلاء السادة، لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة فقد رماني، والله هذا الإمام بداهية ما أرى لها ناهية، وقاصمة ما أرى لها عاصمة، وقد أسلمت لبرهان العلم واستسلمت لسلطان الحكم، ومن مثل علي وهذا مقامه ومن يعادله، وهذا كلامه لو لم ينبه لغفلتنا عن شرف منزلته إلا بسكوت الحصى في كفه لكان في ذلك تنبيهاً لكل قلب نبيه، فيا سوء ما كنت فيه، جزاك الله عني خيراً، زدني زادك الله حكمة وإيماناً وحفظاً وبياناً.

---

(١) القلا: قلاه أبغضه وهجره (المعجم الوسيط).

ومقايسة مع الصديق وسلمان الفارسي

قلت لها: نعم هذا الذي بشرت غير ما مرة أنك في مقامه، حامل ألويته وأعلامه أبو بكر الصديق رضي الله عنه روينا بالسند الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خرج حين توفي رسول الله صلى الله وسلم وعمر رضي الله عنه يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس يا عمر، فتشهد أبو بكر ثم قال: أما بعد (فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ومن كان منكم يعبد الله عز وجل فإن الله حي لا يموت) ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية فسكن جأشهم بالقرآن، وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن، ناشدتك الله يا نفس هل حصلت بالسر الذي تدعي أنه قد حصل لك من الحق حالاً ومقاماً من تعظيم الله تعالى ما علمت به تعظيم من عظمة الله من جهة تعظيم الله إياه، ثم وفيته حقه في ذلك ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] من غير أن تسقطي باستيلاء سلطان عظمة الله من قلبك عظمة خير العالمين إلى من دونه من أهل التعظيم مقاماً مستصحباً؟، قالت: لا والله يا وليي إنما بين فناء وبقاء، وتلاش وانتعاش، وإقبال وإدبار، ووصول ورجوع، وما كنت فهمت قط هذا من هذا الكلام الذي خرج من فم الصديق حتى نبهتني عليه، ولا سمعته من أحد من أشياخنا و لا رأيته، على أن لنا بحثاً وأسراراً في الصحابة وتعظيمهم ومكانتهم ما سبقت إليها، وما رأيت أحداً ممن لقيته من أصحابنا عثر على ذلك، إلا أنهم يجمحون عليه ويحومون حوله، ولم يجدوا لتحصيله منفذاً، وإنما هو وهب إلهي لايوصل إليه بعمل، وهم يطلبونه بالاستعداد والمجاهدة، ثم قالت لي: انتقل بي عن هذا المقام فقد قصم ظهري.

قلت لها: نعم هذا سلمان الفارسي رضي الله عنه دونك في النسب الطيني وإمامك في النسب الديني، روينا بالسند المتصل عن رجل من أشجع قال: سمع الناس بالمدائن أن سلمان كان في المسجد فأتوه فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع

إليه نحو من ألف رجل قال: فقام فجعل يقول: اجلسوا فلما جلسوا افتتح سورة يوسف عليه السلام يقرؤها، قال: فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقي نحو من مائة، فغضب وقال: الزخرف من القول أردتم، قرأت عليكم كتاب الله فذهبتم ناشدتك الله يا نفس فهذا مجلس حق فأصدقيني، هل سمعت قط كتاب الله يتلى فلم تهتزي؟ فلما أنشدك شعراً اهتززت وجننت وأخذك الحال، فقالت: والله ذلك ديني وأدبي أبداً، وأزيدك والله ما هو أنحس من هذا مما أنا عليه، أني أقرأ القرآن ويدركني العياء وأقول لك: والله لا أقدر على شيء وقد ضعفت وكلَّ خاطري فتجيبني إلى ذلك، وتتركي المصحف من يدك والتلاوة من لسانك فما تلبث أن نبهتك على مقطوعة من كلامك أو كلام غيرك في أي فن كان فتفتحي فاك بها وتنشديها وتترنمي فيها وترتليها مترسلاً على طريقة تحسنها نشيطاً طيب النفس ما بك من كسل ولا عياء، فلو كان الكسل والعياء حقيقة مني لأستصحبك، وإنما ثقل علي القرآن، وكنت أجعلك في تلاوته بحذر ولا ترتل عسى تستريحي وكذلك في أوراد العبادات التي يستحب التثبت فيها، وذلك كله خديعة مني لك، أترى هكذا حالة المؤمن؟ لا والله، بل كلام الله تعالى للمؤمن ألذ وأشوق إلى سماعه من الظمآن للماء الزلال، فإنا لله وإنا إليه راجعون على نقص الإيمان، بل والله على ذهابه، يا شؤم نفسي ويا حسرتي ويا أسفي، كم مرة والله سمعت آية من كلام الله فثقلت علي ومججتها، وكم والله رنة شعر سمعتها فاستعذبتها، أخاف والله يا وليي على نفسي وعلى من هو مثلي أن ينقل اسمه من ديوان المؤمنين إلى ديوان من قال فيهم الحق جل وعلا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: ٤٥] وقد اتصفت بهذا القول القوال زخرف القول وغروره فأهتز وأقوم وأقول: شاباش هذا والله حسن، فأقسم بالله كاذباً ولا يزال الملعون من شيطاني يرقصني كما يفعل صاحب القرد بقرده، فإذا أخذ حاجته مني صفعني صفعة فأضجعني فيقوم من قل فلاحه مثلي

فيغطيني برداء حتى يخلي سبيلي وأقوم وأهني، وقد عزاني الملأ الأعلى في ديني وفيما مضى من عقلي.

عاقبة سهر الليل: ضياع صلاة الصبح

فإذا كان آخر الليل أنام أنا والجماعة السوء مثلي وقد تعبنا من كثرة مارقصنا، فلا نلحق ننام إلا والصبح قد قام، فنقوم نتوضأ أقل ما ينطلق عليه اسم الوضوء، ثم نجيء إلى المسجد هذا إذا وفقت وإلا فالأغلب على من هذه حالته أن يصلي في داره بإنا أعطيناك الكوثر، وسورة الفاتحة كيف ما كانت، والقنوت ليس بواجب فأتركه، وأنقرها مخففة جداً، ثم أضطجع إلى وقت الضحى لأستريح.

الغافل يستثقل صلاة الإمام

هيهات والله ما كانت طريق الله هكذا، وإن كنت موفقاً أكثر من غيري توضأت وخرجت إلى المسجد، وإذا دخلت فيقال لي قد صلى الناس فلا أجد لذلك حزناً، ولا أكثرت بل أقيم الصلاة وأصلي وأخرج، وكأنه ما فاتني شيء لا هي القلب مسروراً، وأقول بلسان الحال: قد حصل لي أجر الجماعة بقصدي وأراحني الله من تطويل الإمام، وإن أدركت الصلاة مع الإمام فأنا في تلك الصلاة على أحد وجهين إذا كنت مستريح القلب من كل شيء، إما حاضر في ليلتي البارحة وحسنها، وما كان أحسن ذلك القول وشعره، وأقضي صلاتي كلها في هذا حتى لا أدري ما صلى الإمام ولا بما صلى، وإنما رأيت الناس يفعلون شيئاً ففعلت مثلهم، ركعوا فركعت، وسجدوا فسجدت، ووقفوا فوقفت، وجلسوا فجلست، أو يكون النوم قد أخذ مني وهي الحالة الثانية، فأترقب عند ذلك فراغ الإمام، وتثقل علي القراءة وأغتاب الإمام في نفسي وأمقته، وأقول ما أثقله قد افتتح سورة الحشر أو الواقعة، هلا كان قنع بالانفطار والفجر، والنبي ﷺ قد أمرنا بالتخفيف هذا خلاف السنة وَنُحَوْ قِلُ ونهلل كل ذلك لغير الله تعالى.

المتواجد والشيطان

أما تستحي يا نفس من الله تعالى وقد كنت البارحة مسخرة للشيطان وملعبة له، ورقبتك مصفعة، وناصيتك بيده، وأنت في هذا كله تلتذين ثم الداهية العظمى، والطامة الكبرى، والداء العضال، والمصيبة الأزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة، إني أقول في تلك الحالة كلها إني كنت مع الله وفي الله وبالله قمت، وفي الله شطحت، وإلى الله وصلت، وقلت لله، وقال لي الله، ويعتب أولئك الأغمار الجهال مثله فيقول لِمَ لَمْ تسألوني إذا رجعت من حالي ولو سئل لافتضح، ولو فرضت أنه أجاب فقد يجيب الكاذب عما يسأل عنه مثل هذا، ويؤيده الشيطان بخيالات ينصبها له ويبديها في سره، فيعبر عنها قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] فهذا ولي الشيطان ينطق بلسانه وهو مطيع له، فانتظم في أهل الشرك، فناهيك من مجلس يحوي أو يضم المشركين وأولياء الشيطان، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، أخبرني شيخي وكان من أهل الكشف والوجود عن رجل أعمى البصر من الصالحين، حضر مبيتاً في سماع، فقال الأعمى: هذا إبليس قد دخل على صورة معزي، فرآه يشم الجماعة واحداً واحداً، قال الشيخ وقعد الأعمى ينعت الجماعة الأول فالأول على التتابع كما هم عليه من الجلوس واللباس والصورة وهو يقول ترى الملعون يمشي عليهم ناظراً إليهم حتى قال تراه قد ثبت عند واحد عليه عباءة حمراء وعمامة وإحرام، التفتوا إليه قال: فالتفتنا فرأيناه يستجلب الحال، فقال الأعمى: أرى الملعون قد وقف عند هذا الرجل ثم قال: تراه يريد أن ينطحه بقرنه، قال ثم غلبه فطعنه بقرنه، فإذا ذلك الرجل قد صاح صيحة وغلب عليه الحال، وقام يشطح، فقام أهل المجلس لقيامه وهو بهذه المثابة، ما أحسن قول الله عز وجل إذ يقول: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ [يس: ٦٩]. فناهيك من خصلة لم يرضها لنبيه، وقال ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٩].

مقام المريد

بارك الله فيك يا نفس أقررت بالحق وخضعت له، فقالت: الحق أحق أن يتبع، صدق والله سلمان الفارسي ورضي الله عنه رضي الله عن أبي مدين حيث قال: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد، هذا مقام المريد فما ظنك بالعارف هل يعرج على كلام غير كلام سيده.

السماع

وكل من سمع من الشيوخ فهو على أحد أمرين، إما قبل أن تحصل له مرتبة التمكين، فالسماع عندنا عليه حرام في ذلك الوقت، أو سمع بعد التمكين بشروطه المعروفة التي قد ذكرناها في غير هذا الموضع، ويعلم من هذا أنه قد نـزل من المقام إلى ما هو أسفل منه وأدنى لحظ نفسي، ولهذا قلنا في حق بعض من لقيناه من المشايخ، وكان يولع بالسماع، وكان قبل ذلك لا يقول به فسئلنا- عنه فقلنا: الشيخ متمكن في مقام السماع نازل، وحظه النفس، فما هو الشيخ ـ والله أعلم ـ إلا نـزل إلى السماع رحمة بنفسه دنيوية، وجاد على السماع بذلك ليشرف السماع، فإن السماع يشرف بالعارفين ولا يشرف به العارفون، «**فَصَارَ نُـزُولُه إليهِ كَنـزُولِ الحقِّ لِعبادِه، هَلْ مِنْ تَائبٍ فَيُغْفَرُ لَهُ، فشرَّفنا بِنُـزُولِه إلينا وَلم يُشَرَّفْ هُوَ بِنَا**»[1] هذا إذا كان الشيخ عالياً، ولكن يقع منه هذا نادراً إلا، إن أراد الحق أن يبقيه فيه زماناً طويلاً، فيعلم الشيخ إن كان عارفاً متمكناً أنه مطرود، وأن رجوعه إلى السماع مستصحباً عقوبة من الله عزوجل له ذنب أتاه، ولذلك عاقبه بالسماع، فلا يجد حاله إلا فيه ويفقدها إذا فقده مكراً من الله واستدراجاً، فيبكي على نفسه ويبحث على ما جنته نفسه فيجد ذنباً ضرورة لا بد من ذلك، والله يلبسنا وإياكم رداء العافية ويحلنا وإياكم المراتب السامية العالية، ولا يجعلنا وإياكم ممن له إلى سماع السماع أذن

(١) رواه البخاري (١٣/٣٨٩ ـ ٣٩٠) في التوحيد: باب قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٠] ومسلم رقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين وقصرها.

واعية فيكون من أهل القلوب اللاهية، يا نفس أعرض عليك غير هذا، قالت نعم أحوال مثل هؤلاء هي الشفاء والدواء، إذ ليس لنا سبيل إلى الله تعالى إلا على مدارجهم، ولا ارتقاء إلا على معارجهم، فبأحوالهم نتحقق وهي الموصلة إلى الحق.

قلت لها: نعم هذا أبو الدرداء رضي الله عنه روينا من حديث أحمد بن جعفر بن حمدان قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ثنا إسماعيل ثنا أيوب السختياني عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء رضي الله عنه إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً، وإنك لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً منك للناس، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه من الذين أوتوا العلم، ناشدتك الله يا نفس هل كنت قط على ما أشار إليه أبو الدرداء قالت: كنت على بعضه لا كله، قلت لها قدر نقصك من الفقه على قدر ما نقصك منه فقد ثبت جهلك، قالت: صدقت ولكن اشرح لي قوله فإن فيه إجمالاً، قلت لها نعم سمعاً وطاعة، أما قوله: إنك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً، تحت هذا الكلام بحور طامية[1] وأسرار عالية عمادها الذي يرجع إليه معرفة القرآن ومنزله وتنزله، وليس هذا المكتوب يحمله لما بنى عليه من الاختصار.

القبض والبسط، والخوف والرجاء وغيرهما

فأما الوجوه يا نفس التي يكون بها فقيهاً من رآها فهي كثيرة نذكر منها وجهين أو ثلاثة فمنها المسألة التي كنا فيها من سماع الشعر، وذلك أن الإنسان له أحوال كثيرة يجمعها حالتان مسميتان بالقبض و البسط،[2] وإن شئت الخوف والرجاء،

---

(١) **طامية**: يقال: طما الماء: ارتفع حتى ملأ النهر. (المعجم الوسيط).

(٢) وهما حالتان، بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء فالقبض للعارف: بمنزلة الخوف للمسأنف (للمبتدئ خوفه وهو المريد) والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمسأنف (للمبتدئ خوفه وهو المريد) الرسالة القشيرية (ص: ١٣٥).

وإن شئت الوحشة والأنس، وإن شئت الهيبة والتأنس وغير ذلك، فمتى اتصف الإنسان عارفاً كان أو مريداً متمكناً أو متلوناً بحال من هذه الأحوال، فإنه من المحال أن يتصف بها عبد من غير باعث ولا داع إليه إلا في وقت ما وهو مقام ومفزع نص عليه الشيوخ، وهو أن تجد قبضاً أو بسطاً وتجهل سببه فالمحققون يخافون من ذلك أن يمكر الله بهم فيه، فمتى اتصف الإنسان بشيء من هذه الأحوال، فلينظر من داعيه إلى ذلك، ومن سلطانه، فإن كانت آية من كتاب الله فإن حاله انبنى على أصل صحيح، وبيان ذلك أن النفس ليست بمحل للقرآن الكريم، فإنه يثقل عليها بطبعها وحقيقتها، وهنا تفصيل فإن القرآن يعم الحقائق كلها والنفس من جملتها، فلا بد أن يكون لها فيه نصب وما بقي إلا تعيين ذلك النصب من غيره، وكنا نذكره لولا المدعى بأخذه، فتركناه لهذا السبب، والشيطان أبعد من أن يكون له حال فيك، فإن الشيطان ليس له منك من يأخذ منه إلا نفسك، وهي قد أبت عن حمل القرآن لضعفها عنه فمن المحال أن ينبعث عن القرآن حال من الأحوال، من الشيطان أو النفس البتة، وتعرف عند ذلك أن الحال في العقل، والعقل في الروح لا في النفس، وأن الروح صاحب الملك، وأن الملك صاحب العلم والفراسة والإلهام واليمين والآخرة والذكر والحق و اليقين، فلا بد أن تكون في حالك الذي قام بك من القرآن صاحب علم، أو شيء مما ذكرناه لك، فلهذا أشار الجنيد رضي الله عنه بقوله علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، و لهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

الشعر وما أخبر رسول الله ﷺ

كما أنه إذا انبنى الحال من الشعر والسماع والصفق والألحان، إنما يتلقاه من الهوى والهوى، من النفس والنفس صاحبة الشيطان، الذي الشعر نفثه[١] على ما أخبرنا به رسول الله ﷺ، إلا ما تعلق منه بتوحيد الله عز وجل فهو محمود من

(١) لم أجده .

محامد النفس خاصة، ما زال انبعاثه من أصله، وإن الشيطان للنفس بمنزلة الملك للروح، فكما كان الملك أميناً على الأوصاف التي ذكرنا بعضها كذلك الشيطان في مقابلته فصاحب الجهل في مقابلة صاحب العلم، والظن في مقابلة الفراسة، والوسوسة في مقابلة الإلهام، والشمال في مقابلة اليمين، والدنيا في مقابلة الآخرة، والغفلة في مقابلة الحق، والشك في مقابلة اليقين، والمعصية في مقابلة الطاعة، والتشبيه في مقابلة التنزيه، والشرك على مراتبه في مقابلة التوحيد، وغير ذلك مما تضيق هذه العجالة عنه فإنه باب واسع هذا نموذجه، وكل حال ينبعث عن القرآن فلا بد أن يعلو بصاحبه إلى أحد هذه المنازل على قدر السماع، ومعنى ينبعث عن القرآن لا يزول سامعه عن المعنى الذي نزل له القرآن، لا لخيال قام به عند تلاوة القرآن في معشوقة، أو المرأة التي اتخذها أختاً في الله على دعواه، ولكل هذا شروط، وكل حال ينبعث عن الشعر والسماع فلا بد أن ينزل بصاحبه على أحد هذه الدركات، وسر ذلك أن أصل انبعاث القرآن كلام الله المقدس الذي ما اعتراه قط نقص ولا تدنيس، ولا جاز عليه ذلك، فمن المحال أن يعطي إلا بحسب طهارته، وأصل انبعاث الشعر كلام المخلوق الناقص الدنس الذي ما صح له كمال طهارة، لامتزاجه، فالغاية في الشعر أن يكون ممتزجاً لا تكمل طهارته أبداً، فمن ثم إلى الآن لم يزل في النقص والتدنيس، فمن المحال أن يعطي أبداً إلا حالاً ناقصاً دنساً، هذه حالة العارفين المكملين فمنهم ومعهم أتكلم، وكثير من السادة الكبار يعرفون هذا من نفوسهم، وأما من نزل عنهم من المدعين والمريدين فلا كلام لنا معهم،ولهذا قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه في سماع العارفين مطلقاً يحكم على مقام أهل السماع أنهم أهل الكدية، واستعاذ بالله منه كما استعاذ من طي الأرض، والمشي على الماء، وفي الهواء، وسأل أن يهيئه الله لشيء من أشيائه أي سر من أسراره، فلو تبدلت هذه الأسرار في السماع لنا استعاذ منه مثل أبي يزيد وقال في حق المريد إذا رأيت المريد يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة فجعل محله للمريدين البطالة وللرجال الكدية، وإنما سقت كلام أبي

يزيد رضي الله عنه لما وصلني عن بعض الناس من المقلدين في هذه الطريقة أنه قال لما سمع مني الإنكار في السماع، وقد أوضحت له حقيقته حتى اعترف بها فقال تقليد بتقليد،والأولى أن أقلد الشيوخ المتقدمين الذين قالوا بالسماع، ولهذا سقنا كلام أبي يزيد لكونه من المتقدمين، وأن كلامنا موافق له.

إباحة الشعر والغناء على القدر المسموح في الشريعة

وقد بلغني من ثقة عن إباحة الشعر والغناء على قدر مسموح في رجل من المتمشيخين لا من الشيوخ، كان يلازم مجلسنا فسمعنا نتكلم في السماع وإجازته، وأنه مباح، وبينا نقصه في المقامات، وأين ينتهي بصاحبه، فغضب وانقطع، فسألت عنه وما شأنه فقيل: إنه قال: قد كان الشيوخ يسمعون مثل ابن الدقاق وغيره، فلم أدر قبل مم أتعجب من جهله في حكمه على الحق بالرجال، والرجال لا يعرفون إلا بالحق لا الحق يعرف بهم، فهذا جهل محض وتقليد صرف، ومن هذه حالته في العلم كيف يرجى فلاحه في نفسه، أو كيف يتصور أن يفلح به غيره، أو أتعجب أيضاً من عدم تحصيله لما أوردناه في السماع، فإنا لم نحرمه بل أبحنا الشعر والغناء على القدر الذي جاءت به الشريعة، ثم تكلمنا في نقصه من المقامات، وأين منزلته والفرق بينه وبين غيره، كما نفرق بين التوكل والزهد أي الذي ينبني على معرفة التوكل ما هو الزهد ومقامه، فإن المتصف بصفة ما يكون بحيث مقامها ويتميز في أهلها، وقد سمعت من أبي محمد عبد العزيز المكتوب له هذه الرسالة رضي الله عنه إشارة عجيبة لا يعرفها إلا متمكن متحقق جداً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] فقال رضي الله عنه: سر هذه الآية في قوله لبشر ولا يكون بشراً إلا من غلبت عليه البشرية، وفي الآية عندي تفصيل عجيب وفي نساء يوسف عليه السلام مايؤيد إشارته ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] وعندنا من الدلائل عليه مالا يحصى، فهذا من بعض وجوه القرآن التي نبه عليها أبو الدرداء رضي الله عنه.

العبادة والتجارة

ومنها أن يردك على الحق ويصرفك عن الخلق في معاشك وما ضمن لك وغير ذلك مما تحذر وترجو فإن القرآن يحرضك على هذا وكذا فعل أبو الدرداء بآية قرأها قال فأردت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأخذت في العبادة وتركت التجارة يؤيده قول الله تعالى لموسى عليه السلام: «اطلب مني كل شيء حتى الملح تلقيه في عجينك» وهذا المقام هو الذي أخذه سالم عن النبي ﷺ وقد تقدم ذكره وهذا بعض ما في كلامه.

قالت النفس قلت الحق وفي هذا غنية لي إن كنت عاقلة فالويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات، وقد بقي (أي من كلام أبي الدرداء) لي الكلمتان مقت الناس في جنب الله تعالى، ومقته لنفسه ومقت الناس مشكل، فقلت لها يا نفس ليس الأمر كما ظننت أرعيني سمعك.

الفقه الإلهي والعلم اللدني

أما قوله: (ولا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في جنب الله(فاعلمي أن للإنسان حالتين لا يخلو منهما إما أن يغلب عليه ربه أو نفسه فإن غلب عليه ربه ولم يعرف الناس ولا ما هم عليه وأداه ذلك إلى تركهم في جنب ما حصل في نفسه من الأنس بالله تعالى،ويمقت هنا بمعنى يترك، فإن من مقت شيئاً تركه فكني بالأصل هنا عن الفرع، وأما من غلبت عليه نفسه فالمقت هنا على بابه وصورته، ومقته للناس أن الغالب على الناس المخالفة والبطالة فلا يزال يمقت منهم تلك الأفعال، وينبههم عليها ويقرع أسماعهم بها وينصحهم في دين الله وجنبه فيثقل ذلك عليهم، ويستخفونه ويبردوه ويتجنبوه ويسدون الأبواب في وجهه حتى يتركوه فرداً وحيداً لا صديق له، ولا معاشراً كما قال عليه السلام: «مَا تَرَكَ الحقُّ لِعُمَرَ مِنْ صَدِيقٍ»[1]

---

(١) قال النجم الغزي في الإتقان (١٦٠٥) وكذا العامري في الجد الحثيث (٣١٥) هذا غير معروف في كتب الحديث في حق عمر لا عنه ولا عن غيره . كشف الخفاء (١١٥٥ و ٢١٩٨) .

فإذا رجع الناس أعداء له لا يكلموه، رجع بالضرورة إلى نفسه فمقتها بأنواع من التوبيخ من قلة الصدق في العمل وعد الإخلاص ودخول العلل في المخاطبات، والخواطر والنصيحة والإشارات فصار مقته لنفسه أشد من مقته للناس ولا يقدر ينفصل عن نفسه ولا تنفصل عنه مثل الناس، فيفتح له في ذلك من الفقه الإلهي، والعلم اللدني مالا يعرفه إلا من شاهده، وحسبك يا نفس فقد أطلت علي سؤالك، فاقنعي بهذا القدر فإن هذه المسألة أعظم وأقوى من أن أبسط شرحها في المجلدات، فقالت: قنعت وبالله استعنت فهات غيره، فقد عرفت وتحققت أني لا شيء، ولا أصلح لشيء، وأني في وجودي وفي عيني كما كنت قبل وجودي ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ①﴾ [الإنسان: ١] وفي الحقيقة لم يزل كذلك ولا يزال.

فقلت لها: نعم هذا عثمان بن مظعون صاحب رسول الله ﷺ الذي أوذي في الله فرضي. وتعرض لذلك، لما مات دخل عليه الرسول ﷺ حين مات فأكب عليه ثم رفع رأسه ثم حنا الثانية ثم رفع رأسه ثم حنا الثالثة ثم رفع رأسه وله شهيق، فعرفوا أنه يبكي فبكى القوم، فقال ﷺ «**اذْهَبْ عَنْهَا أَبَا السائِبِ فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْهَا وَلم تُدَنَّسْ مِنْهَا بِشَيءٍ**»[1] روينا هذا من حديث أبي حامد بن جبلة بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وروينا أيضاً من حديث أبي بكر بن مالك بسنده عن عبد ربه بن سعيد المدايني أن رسول الله ﷺ دخل على عثمان بن مظعون وهو في الموت فأكب عليه يقبله فقال: «**رَحِمَكَ الله يَا عُثْمانُ مَا أَصَبْتَ مِنَ الدُّنيا وَلا أَصَابَتْ مِنْكَ**»[2] ناشدتك الله يا نفس فنعمت عهدتك في الانصاف من نفسك خبريني لو كنت في زمان النبي ﷺ [illegible] الحالة التي أنت عليها اليوم وتموتين هل كان رسول الله ﷺ يفعل بك مثل هذا، قالت أما لو جازاني على ما أنا فيه وعليه لخفت أن يقول لأصحابه صلوا على صاحبكم بل أعتقد والله في شأني أني

(١) الاستيعاب: (٣/ ١٠٥٥).

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/ ٤٩٤).

أقرب إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] مني إلى قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] هيهات كيف أرجو أن يكب علي أو يقبلني، بل كان يبكي علي شفقة لما يراه من سوء حالي، وشر ما انقلبت إليه، فيا ليته يؤذن له ﷺ في الصلاة علي غير أن قوله ﷺ في معرض الثناء عليه «ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك» أنه ما سعى لها ولا أصابت من قلبه، تشوقاً إليها ولكنها أتته من غير سعي إليها فقبلها وتصرف فيها فلبس منها الدقاق وأكل منها الرقاق وعلا مسكنه مع فراغ القلب من ذلك وهذا في القدرة جائز مع القدرة عليه، ولقد رأيت في زماني هذا قوماً من أهل التمكين والتحقيق والمعارف قد فعلوا مثل ذلك، أكلوا الشهي من الطعام الغالي ثمنه، وشربوا اللذيذ من الشراب ولبسوا الرفيع من الثياب وربما شيدوا البناء وأحكموه، ورفعوا سقوف بيوتهم إلى حيث لا يحتاجونه، وذلك عن أمرهم بذلك استحسانهم لذلك، وسكوتهم عليه، ولم يعدلوا بعد المعرفة والتحصيل لمقام التمكين إلى ما كانوا عليه في بدايتهم من ترك الأسباب، وطرح الرقاع بعضها على بعض، فأخاف أن لا يكون هذا كذلك، وقد قيل عنه: ما أصابت الدنيا منك شيئاً، ولا أصبت منها شيئاً، من باب السعي والكد، فأوضح لي شأنه وكيف كان حاله وهذه الحالة التي رجع إليها العارفون، هل هي خير مما كانوا عليه أو كانوا في حال فقرهم وتقشفهم أحسن وأثبت؟ فقلت لها: نعم، أما حال عثمان بن مظعون فروينا هذا عنه رضي الله عنه، وأما حالة العارفين الذين ذكرتهم من بسط الدنيا فروينا من حديث عبد الله بن أحمد بن إسحاق قال: ثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين قال: أخبرنا الربيع الرشدني قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه دخل يوماً المسجد وعليه نمرة قد تخللت فرقعها بقطعة من فروة، فرق له رسول الله ﷺ ورق أصحابه لرقته فقال: «**مَه كَيْفَ أَنْتُمْ يَوْمَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ فِي حِلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخرى وَتُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ قَصْعَةٌ وَتُرْفَعُ أُخرى، وَسَتَرْتُمُ البُيوتَ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ، قَالُوا: وَدِدْنا أَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ يَا رَسُولَ الله فَأَصَبْنَا**

الرَّخَاءَ والعَيْشَ، قال: «فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ وَأَنْتُمُ اليومَ خَيرٌ مِنْ أُولَئِكَ»[1] وهذا حديث يا نفس قد أنبأنا عن الفريقين اللذين سألتني عنهما، هذا حال عثمان على ظاهره فقير من الدنيا، وهذا حال من توسع في الدنيا من العارفين، قد جعل الله حالة الضيق والشدة خيراً للإنسان من الرخاء والسعة، وكأني والله يا نفس بك تقولين: أرى أهل هذا المجلس وهم الصحابة الأخيار وهم العارفون بالله المحققون حقائق الوجود لما ذكرهم النبي ﷺ صورة الترفه والتنعم اهتزوا وسألوا متى ذلك وفرحوا بهذا القدر فكذلك أنا أيضاً أرضي بهذه المنزلة وكذلك العارفون الذين وسعوا على أنفسهم دنياهم، فقلت لها ما أعماك عن نور مشكاة النبوة الساطعة أنوارها، فقالت: لا تنظر إلى كلامها ظاهراً هذا لتعلم أن النعيم لا يحجب عن الله ولا الشقاء والبؤس يحجب عن الله إذا كان الحق غالباً على قلب العبد، فإنه لا نعيم أشد ولا أعظم من نعيم النبيين والأولياء في الجنة في ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم ومناكحهم ومراكبهم ومفاكهتهم، ولا يحجبهم ذلك عن الله البتة لسرين كبيرين.

التبشير بفتح ملك كسرى وقيصر

قلت لها: فأنا مسلم أن ذلك لا يحجب عن الله، ولكن قال الرسول ﷺ لتلك الجماعة الذين قالوا وددنا أن ذلك قد كان فأصبنا الرخاء لتحققهم بالله تعالى وعلمهم أن الأحوال لا تحجب عن الله تعالى فإن ذلك كائن، يعني بسط الدنيا عليهم مبشراً بفتح ملك كسرى وقيصر، ثم قال لهم أنتم اليوم خير من أولئك، فأشار بقوله وأنتم لعصمتهم من الدنيا وإن فتحت في حياتهم كأبي عبيدة بن الجراح وغيره رضي الله عنهم وفي ذلك ترجيح الفقر وشظف العيش على النعيم فبيَّن لهم هذا المقام، ونبههم على نقص ذلك المقام، ونقص من اتصف به، وإن أبقيت عليه مشاهدته ومعرفته فإنه نعيم استعجله في غير موطنه، و ترفه استعمله في غير موضعه، فوضع الحكمة في غير موضعها فعادت معرفته جهلاً، وكشفه حجاباً،

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤٧٨) في صفة القيامة، باب رقم (٣٦) وفي سنده شيخ لم يسم وهو شيخ محمد بن كعب القرظي.

وحقيقته خيالاً، ألم تر إلى الذي قال لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً لعظيم الكشف وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف اجتنب طيب الطعام، وفهم من كلام الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] أنه ينسحب على كل إنسان من مؤمن وكافر، أترى يا نفس هذا العارف الذي وسع عليه في الدنيا، يكون أفقه في القرآن من عمر بن الخطاب الذي وافق رأيه ربه في الأحكام، وقد شهد له الرسول عليه الصلاة والسلام أنه ليس من الباطل في شيء،[١] أجيبيني يا نفس فإنك لا تعدين قدرك، لا أنت ولا العارف الذي وسع عليه، إذ لا بد من التأسي فحالة النبي ﷺ أولى فهو الذي عاش في البؤس وضنك العيش، حتى رق له عمر رضي الله عنه لما أثر شريط السرير في جنبه ﷺ فقال: تذكرت كسرى وقيصر، فقال له ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنيا وَلَنا الآخِرَةُ»[٢] أين أنت يا نفس من قول سلمان الفارسي رضي الله عنه على ما رويناه من حديث أبي أحمد محمد بن أحمد الغطريفي ومحمد بن عاصم قالا: حدثنا أبو القاسم البغوي قال: ثنا علي بن الجعد قال: ثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البختري يحدث عن رجل من بني عبس قال: صحبت سلمان الفارسي رضي الله عنه فذكر ما فتح الله تعالى على المسلمين من كنوز كسرى، فقال إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخولكم لممسك خزائنه ومحمد ﷺ حي ولقد كان يصبح وما عنده دينار ولا مد من الطعام، بم ذاك يا أخا بني عبس؟ فانظري يا نفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبي ﷺ وتعريفه وتقريره في قوله بم ذاك؟ ثم أنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرفعة لكانت كلها لرسول الله ﷺ، فلا أرفع منه منزلة عند الله، ولا أرفع منه درجة ولا نعيماً في الجنة، وهذه حالته في دنياه، ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٧) في فضائل النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومسلم رقم (٢٣٩٦) في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) قصة أثر الحصير في جنبه صلى الله عليه وسلم . انظر السيرة النبوية .

رضي الله عنها أن تنال فيها راحة ولا توسعاً، هذا وقد رأى أثر حبل القربة في عنقها من حمل الماء وأثر الرحى من الطحين في يديها وجاءه السبي فلم ير أن يعطيها خادماً يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذي نزل بها وأعطاها بدل ذلك تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً وقال «هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ»[1] فأين أنت يا نفس وهذا العارف فلا الحق رضيها لنبيه ولا النبي ﷺ رضيها لابنته ووصيه، وإذا لم تقتد بهذا النبي ﷺ ولا عرفت تنزيل الحق للمواطن فقد خرجت عن حد المعرفة بالله تعالى وحب حالة رسول الله ﷺ وأتباعه، ولا فائدة ولا تمييز للعارف عن غيره من العوام إلا باستصحابه في حالته حالة النبي ﷺ، وأما العامة فانهمكت في المباحات، فبم تميزت عنهم في ظاهرك كما تدعيه في باطنك، ألست تدري يا نفس ليلة كنا عند أبي محمد عبد العزيز المكتوب إليه هذه الرسالة، ونحن على العشاء فتكلمنا في حالة الدنيا إذا أقبلت على العارف وتصرف فيها مع تعري قلبه عن التعلق بها، فقال رضي الله عنه: والله ما يستوي فراغ قلب عارف عنده درهمان وفراغ قلب عارف عنده درهم، فصاحب الدرهم أفرغ من صاحب الدرهمين، هذا حكم الشيخ أبي محمد عبد العزيز في هذا الحال، فكيف لو دخل معك في باب المقام والأسرار لكان يرميهم خارجاً عن المعرفة فإن الحقائق ترميه والموطن يمجه.

حكاية: جاء رجل إلى سيدنا أبي مدين رضي الله عنه فقال: يا سيدنا إن الشيطان يؤذيني فعسى أن تدفعه عني، فقال له الشيخ: قد شكى إلي إبليس منك قبلك، فقال: وما قال لك؟ قال: قال لي يا شيخ تعلم أن الدنيا خلقها لي ربي، وجعلها حبالي وشركي، وملكنيها فجاء فلان فتعدى علي، وأخذ لي منها فعدوت وراءه أطلب حقي منه، ووالله ما قصدت منهم إنساناً، ولا طلبت منهم أحداً، ولا برحت من مكاني، أحفظ علي بستاني ومالي، فمن أخذ لي منه شيئاً تبعته أطلب

---

(١) رواه البخاري (٧/٥٩) في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب ومسلم رقم (٢٧٢٨) في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم والترمذي رقم (٢٧٢٧) في الدعوات باب ما جاء في التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام وأبو داوود رقم (٢٩٨٨ و ٢٩٨٩).

حقي، وقد عرفت أن فلاناً يشكوني إليك فسبقته، وقد أخبرتك بالقصة، وأنا لا أترك منه حقي وأسلبه مما أقدر عليه من دينه أو يرد إلي متاعي كما فعل الزهاد والموفقون ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فما لي عليهم حجة ولا حق، فإنهم تركوا مالي، وهذا تعدى علي فمن اعتدى فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، من الظالم؟ فقال الرجل: أنا، فقال له الشيخ: رد إليه دنياه، يرد إليك آخرتك.

هل قنعت يا نفس، قالت: نعم، قلت: هذه عشرة شهود كما شرطت لك قد وفيت بذكرهم من خير القرون[1] من صحابة رسول الله ﷺ ولم أجد لك قدماً مع أحدهم، فلمن اتبعت أو بمن تأسيت، فقالت: تبعت هواي فتأست بشيطان مدع في المعرفة مكب على الدنيا مثلي فأثمر لي الدعوى وعراني من ملابس التقوى، فقالت وأنا أتوب إلى الله الآن وأتضرع إليه في الوفاء والعدل والميزان، وكما وفيت أنت بشهودك العشرة ومننت علي بذلك فقد وفيت لك بالإنصاف والإقرار بالحق والاعتراف ولم أمار ولا دافعت الحق بل كنت سلس القياد وذلك بتوفيق الله تعالى وعصمني الله ممن قال فيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٣ ـ ١٤] ولو عاندت وجحدت لما جنيت على أحد إلا على نفسي رزقني الله وإياك من توحيده والعلم به سبحانه وتعالى المراتب العلية والمنازل القدسية حيث لا تدليس ولا جهل ولا تلبيس، إنه عليم حكيم، فاشرع في النمط الثاني فلقد لقيت سامعاً مطيعاً فقلت: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] فقالت: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق حمدي يا سيدي أسلم من حمدك فإنك في معرض الفتنة من جهة التسخير، وحمدي على

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٩٠) في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، وفي فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم .

تحصيل الهداية والتيسير، فقلت لها: صدقت ارعوي بسمعك هذا خير التابعين بشهادة سيد المرسلين ﷺ أعني أويس بن عامر القرني رضي الله عنه الذي أوصى به النبي ﷺ[1] عمر وغيره وذكره لهم.

أويس بن عامر القرني

روينا من حديث أبي بكر محمد بن أحمد قال ثنا الحسن بن محمد قال ثنا عبيد الله بن عبد الكريم قال ثنا سعيد بن أسيد بن موسى قال ثنا حمزة بن ربيعة عن أصبغ بن زيد قال كان أويس القرني إذا أمسى يقول هذه ليلة الركوع فيركع حتى يصبح، وكان يقول: إذا أمسى هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح، وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الطعام والثياب، ثم يقول: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به، ناشدتك الله يا نفس هل اتصفت بهذه الحالة قطعت الليل بسجدة واحدة ثم لم ترفعي حتى الفجر أو ركعت فلم ترفعي حتى الفجر، واستصحبت أن لا تبيتي إلا مثل هذا المبيت كما استصحبه أويس وقلت لله مثل ما قاله؟ قالت: لا والله كل ذلك لم يكن، ولكن يلوح لي من وراء هذا الكلام بوارق من الحقائق عسى أن تنبهني عليها قلت لها: نعم أويس هذا كان متمكناً في مقامه، على بينة من ربه، وعلامة عارفاً بحركاته المستأنفة على يقين من تحصيل أحواله السالفة، وكانت ليلة السجود عنده معروفة، وليلة الركوع عنده كذلك، وغير ذلك من الأفعال، ومن هنا يعرف تمكنه فإن أبا يزيد وهو من الأقطاب ومن كبار الأئمة لم يحصل له هذا التميز فإنه كان يقول إني استقبل الليلة أطلب قطعها راكعاً وساجداً، فأقف في صلاتي فلا أركع وأركع فلا أسجد، وأسجد فلا أرفع، فكم بين من يأتي فصد وبين من يمشي فيفتح له، فهذه حالة صلاة أويس، وأما كونه يتصدق بطعامه وشرابه وثيابه ثم يقول: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به، ينبه على مقامه الأعلى

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٤٢) في فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه.

وقطبيته المثلى، وهذه حالة إمام، وصاحبها على الغاية في المقام، فيعطي ما ملك، ويتضرع لمن استخلفه على عبيده بالرحمة لهم والشفقة عليهم.

قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال له لما دعا على رعل وذكوان وعصية ولعنهم أن الله لم يبعثك سباباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة للعالمين ولم يبعثك عذاباً، والمكمل من سبقت رحمته غضبه، قالت النفس: يا سيدي أرفق ولا تعجل عليَّ فقد ظهر لي في مسألة أويس هذا أمر، خرج الحلاج فيه فوقه، وذلك أن الحلاج رضي الله عنه قال: يخبر عن حالته إذا قعد الرجل عشرين يوماً دون غذاء ثم جاءه طعام فعرف أن في البلد من هو أحوج لذلك الطعام، فأكله ولم يؤثر به ذلك المحتاج فقد سقط، وهذا مقام عال كما رأيته، وهذا أويس رضي الله عنه ما كان يتصدق إلا بفضل طعامه وثيابه، فيأخذ حاجته أولاً، ثم يعطي ما يفضل كل ليلة عن قوته، وهو يعلم أن ثم جائعاً ولم يعطه، وهذا كما رأيته قلت لها يا نفس ما أنت إلا اعترضت اعتراض من لا يعري الحقائق، ولكنك جهلت المقام، فاسمعي الجواب واعلمي أن أويساً هو الإمام الذي لا يلحق.

صفة العارف إذا كان صاحب حال

لتعلمي أيتها النفس إن العارف إذا كان صاحب حال مثل الحلاج فرق بين نفسه وبين غيره فعامل نفسه بالشدة والقهر والعذاب، وعامل نفس غيره بالإيثار والرحمة والشفقة، وإذا كان العارف صاحب مقام وتمكين وقوة صارت نفسه عنه أجنبية لا فرق عنده بينها وبين نفوس العالم، فما يلزمه في حق نفوس الغير من الرحمة والشفقة يلزمه في حق نفسه، لكونها صارت عنه أجنبية وارتفع هو علوياً وبقيت هي مع أبناء جنسها سفلية، فلزمه العطف عليها كما لزمه العطف على غيرها، فإن صاحب الصدقة العارف إذا خرج بصدقته ولقي أول مسكين يدفع إليه الصدقة، فإن تركه ومضى إلى مسكين آخر ولم يدفع فقد انتقل من رضى ربه إلى هوى نفسه، وخرج من ديوانهم، فإنها مثل الرسالة لا يخص بها شخصاً دون شخص أول من

تحصيل الهداية والتيسير، فقلت لها: صدقت ارعوي بسمعك هذا خير التابعين بشهادة سيد المرسلين ﷺ أعني أويس بن عامر القرني رضي الله عنه الذي أوصى به النبي ﷺ[١] عمر وغيره وذكره لهم.

أويس بن عامر القرني

روينا من حديث أبي بكر محمد بن أحمد قال ثنا الحسن بن محمد قال ثنا عبيد الله بن عبد الكريم قال ثنا سعيد بن أسيد بن موسى قال ثنا حمزة بن ربيعة عن أصبغ بن زيد قال كان أويس القرني إذا أمسى يقول هذه ليلة الركوع فيركع حتى يصبح، وكان يقول: إذا أمسى هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح، وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الطعام والثياب، ثم يقول: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به، ناشدتك الله يا نفس هل اتصفت بهذه الحالة قطعت الليل بسجدة واحدة ثم لم ترفعي حتى الفجر أو ركعت فلم ترفعي حتى الفجر، واستصحبت أن لا تبيتي إلا مثل هذا المبيت كما استصحبه أويس وقلت لله مثل ما قاله؟ قالت: لا والله كل ذلك لم يكن، ولكن يلوح لي من وراء هذا الكلام بوارق من الحقائق عسى أن تنبهني عليها قلت لها: نعم أويس هذا كان متمكناً في مقامه، على بينة من ربه، وعلامة عارفاً بحركاته المستأنفة على يقين من تحصيل أحواله السالفة، وكانت ليلة السجود عنده معروفة، وليلة الركوع عنده كذلك، وغير ذلك من الأفعال، ومن هنا يعرف تمكنه فإن أبا يزيد وهو من الأقطاب ومن كبار الأئمة لم يحصل له هذا التميز فإنه كان يقول إني استقبل الليلة أطلب قطعها راكعاً وساجداً، فأقف في صلاتي فلا أركع وأركع فلا أسجد، وأسجد فلا أرفع، فكم بين من يأتي فصد وبين من يمشي فيفتح له، فهذه حالة صلاة أويس، وأما كونه يتصدق بطعامه وشرابه وثيابه ثم يقول: اللهم من مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومن مات عرياناً فلا تؤاخذني به، ينبه على مقامه الأعلى

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٤٢) في فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه.

وقطبيته المثلى، وهذه حالة إمام، وصاحبها على الغاية في المقام، فيعطي ما ملك، ويتضرع لمن استخلفه على عبيده بالرحمة لهم والشفقة عليهم.

قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال له لما دعا على رعل وذكوان وعصية ولعنهم أن الله لم يبعثك سباباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة للعالمين ولم يبعثك عذاباً، والمكمل من سبقت رحمته غضبه، قالت النفس: يا سيدي أرفق ولا تعجل عليَّ فقد ظهر لي في مسألة أويس هذا أمر، خرج الحلاج فيه فوقه، وذلك أن الحلاج رضي الله عنه قال: يخبر عن حالته إذا قعد الرجل عشرين يوماً دون غذاء ثم جاءه طعام فعرف أن في البلد من هو أحوج لذلك الطعام، فأكله ولم يؤثر به ذلك المحتاج فقد سقط، وهذا مقام عال كما رأيته، وهذا أويس رضي الله عنه ما كان يتصدق إلا بفضل طعامه وثيابه، فيأخذ حاجته أولاً، ثم يعطي ما يفضل كل ليلة عن قوته، وهو يعلم أن ثم جائعاً ولم يعطه، وهذا كما رأيته قلت لها يا نفس ما أنت إلا اعترضت اعتراض من لا يعري الحقائق، ولكنك جهلت المقام، فاسمعي الجواب واعلمي أن أويساً هو الإمام الذي لا يلحق.

صفة العارف إذا كان صاحب حال

لتعلمي أيتها النفس إن العارف إذا كان صاحب حال مثل الحلاج فرق بين نفسه وبين غيره فعامل نفسه بالشدة والقهر والعذاب، وعامل نفس غيره بالإيثار والرحمة والشفقة، وإذا كان العارف صاحب مقام وتمكين وقوة صارت نفسه عنه أجنبية لا فرق عنده بينها وبين نفوس العالم، فما يلزمه في حق نفوس الغير من الرحمة والشفقة يلزمه في حق نفسه، لكونها صارت عنه أجنبية وارتفع هو علوياً وبقيت هي مع أبناء جنسها سفلية، فلزمه العطف عليها كما لزمه العطف على غيرها، فإن صاحب الصدقة العارف إذا خرج بصدقته ولقي أول مسكين يدفع إليه الصدقة، فإن تركه ومضى إلى مسكين آخر ولم يدفع فقد انتقل من رضى ربه إلى هوى نفسه، وخرج من ديوانهم، فإنها مثل الرسالة لا يخص بها شخصاً دون شخص أول من

يلقاه يقول له قل لا إله إلا الله. ولاشك أن هذا العارف إذا وهبه الباري رزقاً يعرف أنه مرسول به إلى عالم النفوس الحيوانية، فينزل من حضرة عقله إلى أرض النفوس ليؤدي إليهم ذلك القدر الذي وجه به، فأول نفس تلقاه نفسه لا نفس غيره، وسبب ذلك أن نفوس الغير غير ملازمة له ولا متعلقة به لأنها لا تعرفه، ونفسه متعلقة به ملازمة لبابه، فلا يفتحه إلا عليها فتطلب أمانتها فيقدمها على غيرها، لأنها أول سائل.

وإلى هذا السر أشار الشارع ﷺ بقوله: «ابدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ»[1] والأقربون أولى بالمعروف لتعلقهم بك ولزومهم بابك، والغير لا يتعلق بك ولا يلازمك ملازمة نفسك وأهلك، فلما تأخروا أخروا كما هي الأسرار سواء تخرج من عند الحق على باب الرحمة، فأي قلب وجد متعرضاً سائلاً عند الباب دفع إليه حظه من الأسرار والحكم، وحظه منها على قدر ما يرى فيه من التعطش والجوع والذلة والافتقار وهم خاصة الله.

مقام: تعرضوا لنفحات الحق

وإلى هذا المقام أشار المشايخ وعليه حرضت الشريعة بقولها: «تَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ الله وَمَنْ تَأخرَ أُخِّرَ وَمَنْ نَسِيَ نُسِيَ»[2] فانظري كم بين المنزلتين منزلة الحلاج ومنزلة أويس، و انظري هذا المقام على علوه وسموه كيف اشترك في الظاهر صاحبه مع أحوال العامة، فإن العامة أول ما تجود على نفسها وحينئذ يتعدى جودها إلى غيرها، وإنما يتصرفون تحت حكم هذه الحقيقة وهم لا يشعرون، ولما

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٣٤ و ٢٣٥) في الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى ومسلم رقم (١٠٣٤) في الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأبو داوود رقم (١٦٩١) في الزكاة، باب صلة الرحم والنسائي (٥/ ٦٢) في الزكاة، باب تفسير الصدقة عن ظهر غنى.

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٣١): رواه الطبري في «الأوسط» (٦٢٩٣) و«الكبير» (١٩/ ٢٣٣) من حديث محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وفيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وثقوا. ا هـ وللحديث شاهد عند الطبراني في «الكبير» (٧٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ «افعلوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله ...» وإسناده ضعيف لكن يحسن به إن شاء الله

عموا عن هذا السر وصاروا مثل البهائم لا يعرفون مواقع أسرار العالم مع الله تعالى حرصوا على الإيثار، ومدحوا به، وهو مقام الحلاج الذي ذكرت عنه ورأيت أنه غاية فهكذا فلتعزل الحقائق، وتحاك حلل الرقائق، قالت النفس: هذا شيء والله ما قرع قط سمعي من غيرك، وإن هذا لهو الحق المبين، ولمثل هذا فليعمل العاملون وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، ولقد شرحت صدراً، ورفعت في المعارف قدراً، ولكن بقيت عليك في المسألة تمشية إيضاح حقيقية وهي لعمري دقيقة، وهي قولك: إن الله بعث النبي ﷺ، و قد استسقى فاستسقى فسقي ثم استسقى في العام الآخر فأبى، وقال ﷺ: «**أَغَيْثٌ كَغَيْثِ الكُفَّارِ**»[1] فاختار لهم الشدة على الرخاء، وهو من باب بسط العذاب وقبض الآلاء قلت: صدقت يا نفس قد أثبت ذلك في المحجة البيضاء، قالت فأودعني إياه في هذه العجالة الغراء، قلت لها نعم.

خرج مالك في موطئه عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله هلكت المواشي وتقطعت السبل فادع الله لنا فدعا رسول الله ﷺ فمطرنا إلى الجمعة، قال فجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تهدمت البيوت وانقطعت السبل وهلكت المواشي فقال رسول الله ﷺ «**اللَّهُمَ عَلَى ظُهُورِ الجِبَالِ وَالآكَامِ وَبُطُونِ الأَوْدِيَة وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ**»[2] قال فانجابت عن المدينة انجياب الثوب، يا أهل القلوب المحجوبة عن الاطلاع على ما أودع في هذه الألفاظ من الغيوب.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص: ١١٠) عن عطاء بن يسار....

(٢) رواه البخاري (٢/ ٤١٧) في الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، وباب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، وباب الاستسقاء على المنبر، وباب من اكتفى بصلاة الجمعة في الاستسقاء، و باب الدعاء إذا تقطعت السبل من كثرة المطر، ومسلم رقم (٨٩٧) في الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، والموطأ (١/ ١٩١) في الاستسقاء، باب ما جاء في الاستسقاء، وأبو داوود (١١٧٤و ١١٧٥) في الصلاة باب رفع اليدين في الاستسقاء والنسائي (٢/ ١٥٤ و ١٥٥) في الاستسقاء ، باب متى يستسقي الإمام.

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَو نَادَيْتَ حَيَّاً وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي[١]

مفتاح المنع والعطاء والشدة والرخاء

أعطى هذا سيد العالم ﷺ مفتاح المنع والعطاء والشدة والرخاء فاستسقى واستصحى وأثبت ومحا، ثم لازم الأدب بعد هذا، فقال: «**أَغَيْثٌ كَغَيْثِ الكُفَّارِ**»[٢] فرد السائل بسؤاله حكمة أجراها مرسلة ومرتبة أبداها مكملة فأجاب الأول على غاية الاستيفاء حتى يكون في المنع كما كان في العطاء، ثم إذا نظرت حقيقة هذا المنع وجدته عطاء، إن لله في قلوب ماتت في صدورها وخزاً فلا أحس منها من أحد ولا أسمع لها ركزاً، هذا نبي مكرم ورسول ممجد معظم قام خطيباً في شأن أداء فرضه، وجاء إليه رسول من أهل أرضه فرغب إليه في نقض إبرامه لما تحقق من مرتبته عند علامَّه فألقى ظهر الكف إلى السماء وصفا في الحالة العمياء لما كان الكف محل العطاء ولم يفعل ذلك في الاستصحاء فأسبل رداءه الجو وتموج من حينه الدو فكان نكاحاً معنوياً وكان السيد شاهداً وولياً، فلما صح الانتظام ووقع الالتحام درت الضروع واخضرت الزروع، هيهات والله بعد تقطب وبسالة وستور مسدولة دون عين الغزالة وشمس الحقيقة واغبرار وإقتار وخشوع وافتقار كما قال المهيمن الجبار: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩] فأشفقت لها السماء فأبدت مقلتها من خشوعها دامعة فلاحت بين الخشوع والدموع الروضات اليانعة، أين أهل الفرح والدعه وأرباب الثروة والسعة، والله والله ما نالوا شمة من روائح الوجود، ولا اسماً من أسماء المعبود إلا ببذل المجهود، وصحة المقصود، وتفطير الكبود، وخشوع الجوارح، وتقصف الجوانح وإقامة المآتم، والمنايح والهمهمة في المحارب بالقرآن، والتعرض بتوفير الهمة وصدق التوجه للرحمن في ري الظمآن.

ناداني الحق في سري: عبدي وابن أمتي وعبدي [illegible] وعزتي وجلالي ومجدي

---

(١) البيت لكثير عزة في ديوانه من قصيدة راثياً بها صديقه وتقع في ٢٤ بيتاً.

(٢) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص: ١١٠).

وعظيم سلطاني وعلو مجدي لا نال معرفتي أحد ولا ينال ما عندي من جزيل وعدي إلا حتى يتصف في هذه الدار الدنيا، بما اتصف به أهل الشقاء في الدار الآخرة من الخشوع، ذلة وافتقاراً والبكاء دمعاً مدراراً، والزفرات المتصاعدة وتنضيج الجلود، وتضيق الكبود، وتنغيص العيش النكيد، بهذا حليت أوليائي وأنبيائي لما سبق لهم عندي من السعادة بعد جهد ومكابدة وجوع وشد الأحجار على البطن، قاساه الرسول السيد المطيع حتى فتح له مع أصحابه في لبن وتمر دون لحم ولا خبز بر، قال لأصحابه: «**إِنَّكُمْ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نَعِيمِ هَذَا الْيَوْمِ**»[1] فنغص عليهم عيشهم على قلته وأخذهم له على فاقة، فأحوال الدارين معكوسة وصفاتها منكوسة، «حُفَّتِ الجنَّةُ بِالمكَارِهِ وَهِي مَا يُقَاسِيها المُؤْمِنُ في الدُّنيا وَالظّافِرِ في العُقْبَى وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ»[2] وهي ما يلتذ بها الكافر في الدنيا والمؤمن في العقبى فانظري في حزب من تكوني، خلقت الدنيا وخلقت لها أهلاً، وخلقت النار لهم موطناً، وخلقت الآخرة وخلقت لها أهلاً، وجعلت الجنة لهم مقيلاً، ومحل رؤيتي مستقراً ومسكناً، ملكت الدنيا من سبقت عليه كلمتي، بغضبي القاصم ولعنتي، فطردته السابقة من باب رحمتي، وملكت الآخرة كل خاشع، أواه جد في مسراه وضمر بطنه للسباق وخاف من حسرة الاستباق فإنه طلق أنا غايته ورؤية كريم وجهي والتنزه فيه نهايته، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠ - ١١] تسابقوا على نجب الأعمال، وتحققوا بحقائق المقامات والأحوال فوصلوا إلى مشاهدة الجلال والجمال، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فهو براقه الذي أخرجه من عندي، فإلي يرجعه لأن قولهم بلا عمل من الأعمال وعندي يجدونه إذا رجعوا من غير نقص ولا اختلال

---

(١) رواه مسلم رقم (٣٠٣٨) في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق رضاه بذلك ويتحققه، والموطأ (٢/ ٩٣٢) في صفة النبي ﷺ، باب جامع ما جاء في الطعام والشراب والترمذي رقم (٢٣٧٠) في الزهد باب في معيشة أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٨٢٢) في صفة الجنة في فاتحته، والترمذي رقم (٢٥٦٢) في صفة حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات.

نكتة بإشارتها من خلف ستاراتها

نكتة بإشارتها من خلف ستاراتها ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] قام السيد ﷺ على أعواده ساعة إشهاده فقيل له لما طلب منه الاستصحاء: أنعمت فأبليت وبالغت في التكحيل لإزالة الرمد فأعميت، فاهتز قضيب البان عبد الله ﷺ وإن شئت قلت عبد الرحمن، وجال في ميدان الاستخلاف، وأراد الجنوح إلى فئة الائتلاف من فئة الاختلاف، ووقف في برزخ الاعتدال بين وزيري الجلال والجمال، فغيض الماء وقضي الأمر واستوت السفينة على الجودي الخاشع، حين وصف غيره بالمتطاول لها وهو بالمتواضع.

حكمة أبداها وسريرة أخفاها، وكيف ولا ينال ما عنده إلا بتطاول الهمم وإبرار المقسم من أجل القسم ،فانجابت حتى صاروا منها في مثل الإكليل وهي هالة لما كانوا أهل وجه واحد في أصل السلالة، فلو رأوا من وراء ظهورهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم مثله لرأوها كالهالة أو كالكلة.

وقد ورد انجياب الثوب لإظهار ما في الغيب بانجياب الشوق و ارتفاع الشك والريب ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، أواه ثم أواه، على أسرار تظهر وأقمار تزهر ولا عيون تبصر ولا ألباب تشعر.

غار ﷺ أن يتخذ من دون الله نداً وأن يصمد إليه في الحوائج صمداً، لما كان الحق إلى جميع العبيد، من حبل الوريد، ثم أسدل بيننا وبينه حجاب الرسالة، وجعل بيدها مفاتيح الكفالة، وكتب لهم بها مرسوم الوكالة فنظرت القلوب إلى أيديهم وما برحوا وسط ناديهم فإذا انقضت الحوائج أسرعوا في الإدلاج يا لها من حسرة ويا شؤمها من فترة حيث لم يقدروا قدرة الواحد الأحد ضمن له همه ومع تصحيحه لذلك فاته يومه فعاش على النصف من عمره ولذا رد على الصديق والآخر أشرك في تحصيل الأنباء غمر الوعاء حتى كأن الجميع ليس لهم خالق وأن هذا الرسول هو الواحد الرزاق، رضي الله عن الصديق الأكبر صاحب السر و العلم

الأزهر في قيامه على منبر الطرفاء يوم الداهية بموت سيد الأنبياء أمين الأمناء وعلم الاهتداء.

وقد ذهل من كان عندنا أقوى الأقوياء فما ظنك بالضعفاء وصار الرفيق الأسبق على مذهب السيدة الحميراء[1] لما كان يظهر عليه من شدة التلهف والبكاء فكان أضعفهم عيناً وأقواهم في صميم السويداء يقيناً فقال: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» ثم تلا استشهاداً على قول الزهراء: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ثم تلاها بقوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠] ثم خاطب جميع الخصماء فهذه القوة الإلهية من زهده في القوت وسوقه جميع ما ملكته يده لله ورسوله فملكه مفاتيح التابوت، فمن غيرته عليه وأمانته إخفاؤه إياه إلى يوم فقد صاحب رسالته ففتح تابوت صدره، وأبدى مكنون سره ونبه بعلمه على مكانته من الله وقدره وأقر له الفاروق بالشرح لما بت لعينه أعلام الفتح ولم يزل الصديق مفتوحاً له قبل ذلك من حين ملك المفتاح ورسم ديوان الممالك وإنما كان ينتظر رحلة السيد ﷺ إلى حضرة المحبوب الرفيق الأعلى المالك فحلاه بزينته لما شاركه في نوره وطينته ثم سلك في الهين واللين على مدرجته لما دعا له أن يكون معه وفي درجته ثم أبان له برهان الموافقة بما ذكره عن نفسه ﷺ وعنه إلى المقام من المسابقة فسبق النبي ﷺ الصديق ولذلك قيل له هناك قف إن ربك يصلي بصوت عتيق فأستأنس وحن من جهة إحساس البدن وقد اتضحت أسرار ولمعت في علية هذا الوجه بوارق الأنوار فنرجع إلى قيامه ﷺ بين يدي وزيري جمال وجلال فأشار إلى وزيره الموهوب العبوس القطوب أن قد ظهرت سطوتك على الأعداء الأغمار بالهلاك والدمار بين صياح رعود ومرهفات بروق وسهام أمطار فأمر العسكر الجرار فجنح فقال لم يهلك سلطاني ولكن سمح فتبسم الجمال وقال صدقت يا رسول الله وصدقت بالحق نطق صاحبي وبه نطقت فإنا تألفنا من غير شتات وحيينا بلا تقدم

(١) وهي السيدة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وزوج النبي ﷺ .

ممات أنا أظهر لك صدق صاحبي فيما ادعاه وأبدى منزهاً عجيباً إلى مقلتك النجلاء مما حواه غصنه ووعاه، فأرسلهما خديمين في العالم أمينين خليلين نديمين وانصرف السيد إلى حضرة العين وغاب بلا كيف حيث لا أين فلذلك لم يروا منه ﷺ إلا صورته المشهودة والحركة المعروفة بيننا المعهودة فقلنا ما شهد به علينا من الأوراق وسارت به الركبان والرفاق وتلى في المكاتب والمنابر والمحاريب في جميع الآفاق ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] عشرة لا تطاق وصيحة مالها من فواق يعانيها قائلها عند السياق إذا بلغت النفس التراق وقيل من راق والتفت الساق بالساق وأيقن بالفراق ولكل واحد من هذه العشرة حظ يراه إذا كان إلى ربه المساق، فعليكم بالإيمان الصرف على غاية الجلاء والكشف، وإلا والله فقد نشر الميثاق وأخذتم بضيق الخناق.

خرج أبو داود في مراسيله في هذا الباب عن شريك يعني ابن أبي نمر عن عطاء بن يسار أن رجلاً من نجد أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أجدبنا وهلكنا إن لم يدركنا الله منه برحمة فادع الله يغيثنا فدعا رسول الله ﷺ فرجع الرجل وقد مطروا فأحيوا عامهم ذلك ثم رجع بعد عام قابل فقال يا رسول الله دعوت لنا فأحيينا عام الأول فادع الله لنا فقال رسول الله ﷺ: **«أَغَيْث كَغيث الكفار[1] لا، ارجع»**.

المؤمن يتقلب بنفسه بين شدة ورخاء

فانظر ما أعظم ما تحويه هذه اللفظة من الأسرار لما علم ﷺ أن نزول الأمطار عند الله بمقدار وأن ذلك لم تجر بنزوله الأقدار ردعه بقوله أغيث كغيث الكفار فأدرج له العلوم في موعظة زاجرة وألصق استمرار الرخاء والسعة بالأمة الكافرة وأن المؤمن يتقلب في نفسه بين شدة ورخاء وفي قلبه بين خوف ورجاء ليهرب إلى التقليل والزهادة، من دام عليه في الدنيا في مأكله ومشربه نعيمه فليتحقق أن ذلك

(١) تقدم تخريجه.

النعيم عذابه وجحيمه، فليفرح المقل بفاقته ويستعمل نفسه في الشكر عليها جهد طاقته ويتنغص له عيش الغنى فيؤجر في تنغصه ويحرضه على الترح بتبديد المال في ذات الله أو تنقصه فيا لها كلمة واحدة عمت القبضتين وانسحبت على الطائفتين، لقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب والحكم، استشهادي له في توقفه عن الإجابة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨] ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٢٧] فتأمل يا وليي سدد الله نظرك ما تنطوي عليه هذه الإشارات ما تتضمنه من المعارف والأسرار والمقامات هذه العبارات.

ولما سمعت النفس إيرادي لهذه الشذور وإبرازي هذه الأسرار المخدرات من خلف هذه الستور تيقنت أنها في تباب وأن عليين إنما هي لأولي الألباب، فألقت يد السمع والطاعة على ملازمة السنة والجماعة، والإقرار بالفضل والسبق للمتقدم، فإن ذلك هو الإمام المعلم، وأيقنت باقتراب الساعة ونفاذ أيامها لظهور شرائطها وأعلامها بقول من كرم هذه الأمة وفضلها «**إن من أشراط الساعة أن يلعن آخر الأمة أولها**»[1] وقد رأينا في هذه البلاد من هذه الشرائط كثيراً وليتهم وقفوا مع سب أولهم من جنسهم ولا يتعدون من ذلك إلى ما هو أعظم منه، فو الله يا وليي لقد قرع سمع أخيك سب السيد عيسى عليه السلام وسب بعض الصحابة الكرام وسب الله ذي الجلال والإكرام.

وأما المدعون في هذه الطريقة فقد قاربوا الخروج من الجماعة بل خرجوا، فطائفة بلغني عنهم أنهم استغنوا عن شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام لما تحققوا به مع الحق من حقائق الوصال لو رأيت أحوالهم لرأيت نقيصة الكون وما تسخن به العين، وقال من تبرز فيهم إماماً وهو لا يعرف ما خلق له ويدعي الكشف الأتم مع الحق، فقال: إن الجنة لم تخلق، هكذا أعطاه كشفه المكشوف وعقله السخيف المتلوف، وأما وليك فسمع واحداً وقد عاب عليه بعض أصحابه السماع يقول

---

(١) رواه ابن عساكر انظر كنز العمال (٢٩١٤٠ و ٢٩١٤١)

لمثلي يقال هذا؟ إن جبريل لا يحسن يسمع مثلي، ولا الملائكة، فقمت عليه في ذلك فتاب واستغفر وأناب، فهذه قلوبهم الحاضرة، ووجوههم الناضرة، إلى ربها ناظرة، بل والله ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤ـ ٢٥].

حديث عن أويس القرني والأتقياء الأخفياء

ثم أعرِّف وليي أبقاه الله تعالى أن نفسي الخبيثة بطانة السوء لما قرع سمعها أخبار هؤلاء السادة والأئمة القادة كان لها من صغرها تعشق بحديث أويس القرني رضي الله عنه قالت لي عسى تنص لي من شأنه بعض ما وصل إليك فإنني ألهج بذكره واطو معي بساط المناظرة وسد باب التمثيل والمحاضرة، وألق ما شئت من أنواع المجاهدة، فإني الموافقة المساعدة، فشكرت الله على طلبها الاختصار وتركها التطويل وعلمت أنها تريد سلوك سواء السبيل، فقلت لها نعم حدثني أبو محمد بن يحيى قال حدثني أبو بكر بن أبي منصور قال: ثنا أبو الفضل بن أحمد بن عبد الله عن أبيه قال: ثنا حامد بن محمود قال: ثنا سلمة بن شيب قال: ثنا أبو الوليد بن إسماعيل الحراني قال: ثنا محمد بن إبراهيم عن عبيد حدثني محمد بن يزيد عن نوفل بن عبد الله عن الضحاك بن مزاحم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في حلقة من أصحابه إذ قال: «**لَيُصَلِّينَّ مَعَكُم غداً رَجَل مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ**»، قال أبو هريرة فَطَمِعْتُ أنْ أكُوْنَ أنا ذَلِكَ الرَّجلُ، فَغَدَوتُ فَصَلَّيْتُ خَلْفَ النّبي ﷺ، وَأَقَمْتُ في المَسْجِدِ حتى أنصرفَ النَّاس، وبَقيتُ أنا وَهُو، فَبَيْنَما نَحْنُ كَذَلِكَ إذْ أقْبلَ رَجُلٌ أسْوَدُ مُتَّزِرٌ بِخُرقَةٍ، مُرتَدٍ بُرقَعَةٍ فَجاءَ حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ في يَدِ النبي ﷺ، ثم قال: يَا نَبيّ الله ادعُ الله لي فَدَعَا لَهُ النَّبيُّ ﷺ بالشَهادةِ وإنَّا لَنَجِدُ مِنْهُ رِيحَ المِسْكِ الأذْفر، فقلت: يَا رَسُولَ الله أهُوَ هُوَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ إنّه مَمْلوكٌ لِبَني فُلانٍ**» قلت: أفَلَا تَشْتَريه تُعْتقهُ يَا نَبيّ الله: قَال: «**وَأنَى لي بِذَلِك إنْ كَانَ الله تَعالى يُريد أنْ يَجْعَلَهُ مِنْ مُلوكِ الجنّةِ، يَا أبَا هُرَيرَة إنَّ لأهْلِ الجنَّةِ مُلوكاً وَسَادةً، وَإنَّ هَذا الأسْودَ أصبحَ مِنْ مُلوكِ الجنَّةِ وَسَادَتِهِمْ، يَا أَبَا هُرَيْرة إنّ الله عزَّ وَجَلّ يُحِبّ مِنْ خَلْقِه الأتْقِيَاء، الأخْفِيَاءُ، الأبْرِيَاءُ، الشّعَثَةُ رؤوسُهُم المغْبَرّةُ وُجُوهُهم الخَمِيصَةُ**

بُطُونُهُمْ مِنْ كَسْبِ الحَلالِ، الذّين إذا استأذَنُوا عَلَى الأمَرَاءُ لم يُؤذَنْ لَهُمْ، وإنْ خَطَبُوا المتَنَعِمَات لم يُنْكَحُوا، وَإنْ غَابُوا لم يُفْتَقَدُوا، وَإنْ حَضَرُوا لم يُدْعَوا، وَإنْ طَلَعُوا لم يُفْرَحْ بِطَلْعَتِهم، وإنْ مَرِضُوا لم يُعَادُوا، وَإنْ مَاتُوا لم يُشْهَدُوا عَلَيهِمْ»[(١)] قَالُوا: يَا رَسُول الله كَيْفَ لَنَا بِرَجُلٍ مِنهم، قَال: «**ذَلِكَ أُوَيْسٌ القَرَني**»، قَالُوا: وَمَنْ أُوَيْسٌ القَرَني، قَالَ، «**أَشْهَلُ ذُو صُهُوبَةٍ، بَعِيدِ مَا بَيْنَ المنْكِبَيْنِ، مُعْتَدِلُ القَامَةِ، آدَمٌ شَدِيدُ الأدَمَةِ، ضَارِبٌ بِذَقْنِه إلى صَدْرِهِ، رَامٍ بِبَصَرِهِ إلى مَوْضِعِ سُجُودِهِ، وَاضِعٌ يَدَهُ اليُمنى عَلَى شَمالِه، يَتْلُو القُرآنَ عَلَى نَفْسِه، ذُو طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، مُتّزِرٌ بِإزَارٍ صُوفٍ، مَجْهولٌ في الأرْضِ، مَعْرُوفٌ في السَّماءِ، لَو أَقْسَمَ عَلَى الله لأبَرّ قَسَمَه، ألا وَإنّ تَحتَ مَنْكِبِهِ الأيْسَرِ لمَعةٌ بَيْضَاءُ، ألا وَإنّه إذَا كَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ قِيل للعِبادِ: ادخُلوا الجنَّة وَيُقَال لأويس: قِفْ فاشفَعْ فَيَشْفَعُهُ الله في عَدَدِ مِثْلَ رَبِيعة وَمُضَر، يا عُمَرُ ويا عليّ إذَا أَنْتُمَا لَقِيتُماهُ فَاطْلُبَا مِنْهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ الله لَكُمَا يَغْفِرْ لَكُمَا الله تَعالى»**[(٢)] قال فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه فلما كان آخر السنة التي هلك فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قام في ذلك العام على أبي قبيس فنادى بأعلى صوته يا أهل الحجيج من أهل اليمن، أفيكم أويس من مراد؟ فقام شيخ كبير اللحية، وقال: إنا لا ندري ما أويس، ولكن ابن أخ لي يقال له أويس، وهو أخمل ذكراً، وأقل حالاً، وأهون أمراً من أن نرفعه إليك، وإنه ليرعى إبلنا، حقير بين أظهرنا، فعمى عليه عمر كأنه ما يريده وقال: فأين ابن أخيك هذا نحو منى هو؟ قال: نعم قال: وأين يصاب قال: بأراك عرفات، قال: فركب عمر وعلي سراعاً إلى عرفات، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة والإبل حوله ترعى، فشدا حماريهما ثم

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (٣/ ٢٧١): أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ وهو «إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة» وقال ـ أي الحاكم ـ صحيح الإسناد قلت ـ أي العراقي: بل ضعيف فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقي متروك.

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٢) في فضائل الصحابة.

أقبلا عليه، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فخفف أويس الصلاة ثم قال: وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته، قالا: من الرجل قال راعي إبل وأجير قوم، قالا: لسنا نسألك عن الرعاية وعن الأجارة، ما اسمك؟ قال: عبد الله، قالا: قد علمنا أن أهل السموات والأرض كلهم عبيد الله، فما اسمك الذي سمتك أمك؟ قال: يا هذان ما تريدان؟ قالا: وصف لنا محمد ﷺ أويساً القرني، فقد عرفنا الشهولة والصهوبة[1]، أخبرنا أن تحت منكبك الأيسر لمعة بيضاء وضحها لنا، فإن كان بك فأنت هو، فأوضح منكبه فإذا اللمعة فابتدراه يقبلانه ويقولان: نشهد أنك أويس القرني فاستغفر لنا يغفر الله لك، قال: ما أخص باستغفاري نفسي، ولا أحداً من ولد آدم، ولكن من في البر والبحر من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، يا هذان قد أشهر الله لكما حالي، وعرفكما أمري فمن أنتما؟ قال علي كرم الله وجهه: أما هذا فعمر أمير المؤمنين، وأما أنا فعلي بن أبي طالب، فاستوى أويس قائماً وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وأنت يا ابن أبي طالب فجزاكما الله عن هذه الأمة خيراً، قالا: وأنت جزاك الله عن نفسك خيراً، فقال: عمر مكانك يرحمك الله حتى أدخل مكة فآتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابي، هذا المكان ميعاد بيني وبينك، قال: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بيني وبينك لا أراك بعد اليوم، تعرفني ما أصنع بالنفقة، وما أصنع بالكسوة، أما ترى علي إزاراً ورداء من صوف متى تراني أخلقهما، أما ترى نعلي مخصوفتين متى تراني أبليهما، قد أخذت من رعائي أربع دراهم متى تراني آكلهما، يا أمير المؤمنين إن بين يدي ويديك عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا ضامر مخف مهزول ناحف يرحمك الله فلما سمع عمر ذلك من كلامه ضرب بدرته الأرض، ثم نادى بأعلى صوته: ألا ليت أم عمر لم تلد عمراً يا ليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها، ألا من يأخذها بما فيها وبها، ثم قال أويس بأعلى صوته: يا

(١) **الشهولة**: أن يشوب إنسان العين حمرة .**والصهولة**: صفرة تضرب إلى الحمرة والبياض (المعجم الوسيط)

أمير المؤمنين خذ أنت ها هنا حتى آخذ أنا ههنا، فولى عمر وساق أويس إبله، فوافى القوم وخلى عن الرعاية وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل قال المغيرة: كان أويس القرني يتصدق بثيابه حتى يجلس وهو عرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة ومما يؤيد هذا ما رويناه من حديث ابن دينار قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنّ مِنْ أُمَتِي لا يَسْتَطِعْ أَنْ يَأتي مَسْجِدَهُ أَو مُصَلّاه مِنَ العُرْي يَحْجِزُهُ أيمانُهُ أَنْ يَسأَلَ النَّاسَ مِنْهُم أُويس القَرني»**[1] وقال عبد الله بن سلمة: غزونا بأذربيجان وكان أويس معنا فلما رجعنا مرض علينا، فحملناه فلم يستمسك فمات، فنزلنا فإذا قبر محفور وماء مسكوب، وكفن وحنوط، فغسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه، فقال بعضنا لبعض: لو نزلنا فعرفنا قبره فإذا لا قبر ولا أثر.

للأرواح نفس كأنفس الأجساد

وقال هرم بن حيان: قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلا أويساً أسأل عنه فدفعت إليه وهو بشاطئ الفرات يتوضأ ويغسل ثوبه فعرفته فإذا رجل آدم محلوق الرأس كث اللحية مهيب المنظر فسلمت عليه ومددت إليه يدي لأصافحه فأبى يصافحني فخنقتني العبرة لما رأيت من حاله، فقلت: السلام عليك يا أويس كيف أنت يا أخي فقال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان من دلك علي قلت: الله عزوجل قال: سبحان الله ربنا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء:١٠٨] قلت: يرحمك الله من أين عرفت اسمي واسم أبي، فوالله ما رأيتك قط، ولا رأيتني قال: عرف روحي روحك حين كلمت نفسي نفسك، لأن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإن المؤمنين يتعارفون بروح الله عزوجل، وإن نأت بهم الديار، وتفرقت بهم المنازل، قال: حدثني عن رسول الله ﷺ لأحفظ منك، قال: إني لم أدرك النبي ﷺ، ولم يكن لي معه صحبة، وقد رأيت رجالاً رأوه، وقد بلغني من حديثه كبعض ما بلغكم، ولست أحب أن أفتح هذا الباب علي، لا أحب أن أكون قاضياً أو مفتياً،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٢) في فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه .

في نفسي شغل، قال: قلت: فاتل عليَّ آيات من القرآن أسمعهن منك، وادع لي بدعوات، وأوصني بوصية، قال: فأخذ بيدي وجعل يمشي على شاطئ الفرات، ثم قال: قال: ربي وأحق القول قول ربي عز وجل وأصدق الحديث حديث ربي عز وجل وأحسن الكلام كلام ربي عزوجل أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠] ثم شهق شهقة فأنا أحسبه قد غشي عليه ثم قرأ حتى بلغ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٤١ ـ ٤٢] ثم نظر إلي فقال: يا هرم بن حيان مات أبوك ويوشك أن تموت، ومات أبو حيان فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات آدم وماتت حواء يا ابن حيان، ومات إبراهيم خليل الرحمن يا ابن حيان، ومات موسى نجي الرحمن يا ابن حيان، ومات محمد ﷺ وعليهم أجمعين. يا ابن حيان مات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات أخي وصديقي وصفي عمر واعمراه، قال: وذلك في آخر خلافة عمر رضي الله عنه، قال: قلت: يرحمك الله، إن عمر لم يمت قال: بلى إن ربي عزَّوجل نعاه لي وقد علمت ما قلت، أنا وأنت غداً في الموتى، ثم دعا بدعوات خفاف، ثم قال: هذه وصيتي لك يا ابن حيان كتاب الله عزوجل ونعي الصالحين من المؤمنين، ونعي الصالحين من المسلمين، ونعيت لك نفسي ونفسك، فعليك بذكر الموت فإن استطعت أن لا يفارق قلبك طرفة عين فافعل، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم، واكدح لنفسك وإياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك. وأنت لا تشعر، فتموت فتدخل النار يوم القيامة، ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك، وزارني من أجلك، فأدخله علي زائراً في الجنة، دارك دار السلام، ورضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من شيء في الدنيا فاجعله في يسر وعافية، واجعله لما تعطيه من أنعمك من الشاكرين، استودعك الله ياهرم بن حيان والسلام عليك لا أراك بعد اليوم تطلبني ولا تسأل عني، أذكرني أذكرك وادع لي إن شاء الله تعالى، انطلق هاهنا، فطلبت أن أمشي معه ساعة فأبى علي، وفارقني يبكي وأبكي ثم دخل بعض السكك، فكم طلبته بعد

ذلك وسألت عنه فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء، حدثنا بهذه الحكاية أحمد الشاهد عن محمد بن عبد الله عن سعيد بن عبد الله عن أبي الفضل عن أحمد بن عبد الله بن محمد بن جعفر عن محمد بن العباس ابن أيوب عن يحيى بن محمد بن السكن عن يحيى بن كثير عن الهيثم بن جرموز عن حمران عن سلمان التيمي عن أسلم العجلي عن أبي الضحاك الجرمي عن هرم بن حيان.

فهذا يا نفس من بعض أخبار أويس الذي أحببته لله وفي الله ولولا التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين رضي الله عنهم أجمعين، ولكنك قد قنعت بهذا القدر فالتزمي طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، فأسلمت إسلاماً جديداً، الله تعالى يثبتها عليه، وأخذت منها العهود التي أخذ النبي ﷺ على النساء المؤمنات فالتزمت ذلك كله عارفة قدر ذلك ومالها في الوفاء به وغدره.

فهذا يا وليي أبقاك الله ما اتفق بيني وبين نفسي بمكة المشرفة حرسها الله تعالى، ثم أرجع مع وليي وصفيي وأخي في الله تعالى أبي محمد وفقنا الله وإياه وأقول: أما بعد يا أخي فإن أكثر الناس خافوا الله على سيئات الناس وذنوبهم وأوزارهم، وأمنوا علي ذنوبهم، وليس هذا فعل الرجل الحازم، والله تعالى يقول: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] وأقرب عدو لك وأعداه عليك نفسك التي بين جنبيك[١] وفيها شغل شاغل للعاقل، وهذا الزمان الذي أنت فيه زمان شر قلت فيه لقمة الحلال وكثر فيه الشره والكلب في قلوب الناس، فلا بطن يشبع، ولا نفس تقنع، ولا عين تدمع، ولا دعاء يسمع، فلما قلَّ الحلال لو وقع التعفف من المريد، وأخذ الغذاء عند الاضطرار، لكان بعض شيء يكفيه، وأبشرك يا وليي رضي الله عنك أني جربت إخواني في هذا الطعام، من باب المغرب إلى باب مكة المشرفة، فما دخل في بطني أخلص من طعامك، كنت أجد له ما لا

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» (٣/ ٤): أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

يمكن وصفه وذلك لطيب النفوس وعدم تعلق خاطرك به إلا في وقت ما تعرفه أنت وابن المرابط وتعرف سببه، وهذا أعجب ما تسمع في هذا الباب وله أصل يستند إليه في اللحم الذي تصدق به على بريره وهو حرام على النبي ﷺ فلما أهدت منه للنبي ﷺ أكل منه حلالاً محضاً وقال: «**هُوَ عَلَيْها صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ**»[1] فألق بالك يا ولي وأحضر ذهنك في هذه المسألة، فإنها لطيفة وقد قصدتك بها متحفاً فإنها من أعظم التحف لأنها تعطيك من أسرار وضع الشرع من عند الله في عبيده علماً كثيراً.

---

(١) البخاري (٣/ ٢٨٢) في الزكاة، باب إذا تحولت الصدقة، وفي الهبة، باب قبول الهدية . ومسلم رقم (١٠٧٤) في الزكاة، باب إباحة الهدية للنبي ﷺ، وأبو داوود رقم (١٦٥٥) في الزكاة باب الفقير يهدي للغني من الصدقة .

تراجم بعض من لقيهم الشيخ الأكبر من كبار رجال التصوف

ولقد لقينا من المشايخ والإخوان والنساء ما لو دونت أحوالهم وسطرت كما سطرت أحوال من تقدم لرأيت الحال الحال والعين العين في الأعمال والجد والإشارات وصحة القصد، فيا وليي

تَـعَـالَ نُـقِـمْ مَـأتـمـاً لِـلْـفِـرَاقِ   وَنَـنْـدُب إِخْـوانَـنَـا الظـاعـنِـيـنَـا[1]

وأنا أنشد لك من بعض أحوال من لقيت:

أبو جعفر أحمد العريبي

فمنهم وهو أول من لقيته أبو جعفر في طريق الله أبو جعفر أحمد-العريني رضي الله عنه وصل إلينا إلى إشبيلية في أول دخولي إلى معرفة هذه الطريقة الشريفة فكنت أول من سارع إليه فدخلت عليه فوجدت شخصاً مشتهراً بالذكر فتسميت له وعرف حاجتي منه، فقال لي عزمت على طريق الله تعالى فقلت له: أما العبد فعازم والمثبت الله، فقال لي: سد الباب واقطع الأسباب وجالس الوهاب يكلمك من دون حجاب، فعملت عليها حتى فتح لي، وكان بدوياً أمياً لا يكتب ولا يحسب وكان إذا تكلم في علم التوحيد فحسبك أن تسمع، كان يقيد الخواطر بهمته ويصدع الوجود بكلمته، لا تجده أبداً إلا ذاكراً على طهارة مستقبل القبلة، أكثر دهره صائماً، أسرته الفرنج وكان قد أعلم بذلك وقال لأهل الغفل غداً يؤخذ الكل أسرى فصبحهم العدو فأخذهم عن آخرهم فأكرم مثواه ونظفت له دار حسنة وخدم بها ثم تقاطع مع العلج الذي كان عنده على خمسمائة دينار فجاء عندنا فقيل له نجمع لك

(١) الظاعنينا: ظعن ظعناً وطعوناً: سار وارتحل. (المعجم الوسيط).

من شخصين أو ثلاثة فقال لا إنما أريدها من أشخاص كثيرة لو قدرت أن آخذها من كل نسمة ذرة فعلت، فإن الله تعالى أخبرني أن كل نسمة وزنت فيها شيئاً عتقت من النار فاستغنم الخير لأمة محمد ﷺ، من أخباره أنه قيل له وهو بإشبيلية عندنا أن أهل قصر كتامه يحتاجون إلى المطر فسر إليهم فاستسق لهم لعل الله أن يسقيهم فخرج لذلك وخرج معه خادمه محمد وبيننا وبينهم البحر ومسيرة ثمانية أيام فقال له بعض أصحابه ادع الله لهم من هنا قال أمرت بالخروج إليهم، فخرج من عندنا فلما وصل قصر كتامه وأشرف عليه منع من دخوله فاستسقى لهم وهم لا يشعرون فسقاهم الله في الحين فرجع من ذلك الموضع ولم يدخل البلد حتى وصل إلينا فقال لنا محمد خادمه الذي مشى معه لما سقاهم الله ونـزلت الأمطار كان الغيث عن يميننا ويسارنا وأمامنا وخلفنا ونحن نمشي لا يصيبنا منه شيء فقلت للشيخ عز علي حيث لم تصبك رحمة الله عز وجل فصاح وقال فزت بها يا حسرة لو تذكرتها هناك، ودخل عليه رجل ومعه ابنه وأنا إلى جانبه جالس فسلم عليه وقال لابنه سلم عليه وكان الشيخ قد ذهب بصره فقال له الرجل يا سيدي إن ابني هذا من حملة القرآن يحفظه فتغير الشيخ وصاح وطرأ عليه حال وقال القديم يحمل المحدث القرآن يحمل ابنك ويحملنا ويحفظ ابنك ويحفظنا، فهذا كان من حضوره رضي الله عنه، وكان قوياً في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم كنت إذا دخلت عليه يقول مرحباً بالإبن البار كل ولدي نافق علي وجحد نعمتي إلا أنت فإنك مقر بها معترف لا أنساها الله لك، سألته ما اتفق له مع الله تعالى في أول بدايته فقال كان قوت أهلي في السنة ثمانية أعدال تيناً والعدل مائة رطل فلما جلست مع الله في الخلوة صاحت علي المرأة وسبتني وقالت لي قم واخدم وسق مايقوم بأولادك لعامهم فشوشت علي خاطري فقلت يارب هذه تحول بيني وبينك ولاتزال تتعبني فإن كنت تريد لي مجالستك فأرحني من همها وإن كنت لاتريدني فعرفني، فقال: قال: فناداني الحق في سري يا أحمد اجلس معنا ولاتبرح فما يذهب النهار حتى نأتيك بعشرين عدلاً تيناً قوت عامين ونصف فلم تكن إلا ساعة وإذا بصارخ وعلى عنقه

عدل من تين هدية فقال لي الحق هذا واحد من عشرين فما غربت الشمس حتى كمل عندي عشرون عدلاً فسرت المرأة والأطفال وشكرتني المرأة ورضيت عني وكان رضي الله عنه كثير التفكر مبسوطاً مع الحق في عموم أحواله دخلت عليه آخر زورة رأيته فيها رحمه الله تعالى ومعي جماعة فوجدناه قاعداً فسلمنا عليه وقد أراد بعض الجماعة أن يسأله فإذا به رضي الله عنه قد رفع رأسه وقال خذوا مسألة وقد رميتك بها ياأبا بكر وأشار إلي لم أزل أتعجب من قول أبي العباس ابن العريف حتى يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ونحن نعلم أن من لم يكن فان من لم يزل باق، فأيش، قال أجيبوا فلم يكن في الجماعة من أجابه، فعرض علي الجواب فحضرتني نفسي بعثوري على وجه المسألة دونهم فلم أتكلم فإني كنت شديد القهر لنفسي في الكلام وعرف مني الشيخ ذلك فلم يعد عليَّ، وكان رضي الله عنه لايتجرد لنوم في ثوب ولايهتز في سماع فإذا سمع القرآن تقصف وتصدعت أركانه، وصليت معه الصبح في دار وليي وصفيي أبي عبد الله محمد الخياط المعروف بالعصاد وأخيه أبي العباس أحمد الحريري فقرأ الإمام عم يتساءلون.فلما وصل إلى قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٦ ـ ٧] غبت عن قراءة الإمام وماسمعت شيئاً ورأيت شيخنا أبا جعفر المذكور وهو يقول المهاد العالم والأوتاد المؤمنون والمهاد المؤمنون والأوتاد العارفون والمهاد العارفون والأوتاد النبيون والمهاد النبيون والأوتاد المرسلون وذكر من الحقائق ماشاء الله أن يذكر فرددت إلي والإمام يقرأ ﴿وَقَالَ صَوَابًا * ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٨ ـ ٣٩] فلما فرغنا من الصلاة سألته فوجدته قد خطر له في تلك الآية ماشهدته، وأضجعه إنسان ليذبحه والسكين في يده والشيخ يمد له عنقه وهم به أصحابه ليأخذوه فقال اتركوه يفعل مايؤمر به فكان يأخذ السكين ليمر على حلقومه فيحول الله في يده حتى رمى به وترامى بين يديه تائباً ولولا التطويل لأظهرنا من أمره وأمر غيره ممن لم نذكره عجائب من إشاراته وماوقع بيننا وبينه من المسائل الإلهية في المواقف وغيرها ولنا فيه أبيات لانذكرها الآن.

أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي

ومنهم رضي الله عنهم شيخنا وإمامنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي العبسي رضي الله عنه صحب أبا مدين رضي الله عنه ولقي رجالاً بهذه البلاد سكن ديار مصر مدة وتأهل بمدينة أسكندرية، رغب في مصاهرته أبو طاهر السلفي، عرضت عليه ولاية فاس فأبى، له في الطريق قدم راسخة، كان أبو مدين رضي الله عنه لسان هذه الطريقة ومحييها ببلاد المغرب يقول في هذا أبي يعقوب مثل (المرسي القوي) للسفينة، كان كثير الأوراد يخفي صدقته، يكرم الفقير ويذل الغني ويسارع في قضاء حاجة الفقير بنفسه، ودخلت تحت أمره فربى وأدب فنعم المؤدب ونعم المربي، ورآه صاحبنا بدر الحبشي وبات عنده سمعته يقول إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين وألقاه في عليين في لحظة واحدة، كان كبير الهمة الغالب عليه طريق الملامتيه قلما تلقاه إلا مقطب الوجه وإذا أبصر فقيراً تبرق أسارير وجهه، رأيته يدني الفقير من نفسه حتى يجلسه على فخذه، يخدم أصحابه بنفسه، رأيته في النوم وقد انشق صدره وفيه مصباح يضيء كأنه الشمس يقول يا محمد هات فأتيته بِحُقَيْن[1] أبيضين كبيرين فتقايا فيهما لبناً حتى ملأهما ثم قال اشرب فشربت،جل ما أنا فيه من بركته وبركة أبي محمد المروزي وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، «أول مسألة ألقاها علي في أول ساعة رأيته فيها وقد أقبل علي بكليته أن قال ما الذنب الذي يأتيه المار بين يدي المصلي حتى يود أن يقف أربعين خريفاً»[2] فأجبته على ذلك على حد ما وقع لي فسر بذلك، فكنت إذا قعدت بين يديه وبين يدي غيره من شيوخنا أرعد مثل الورقة في يوم الريح الشديد ويتغير نطقي وتتخدر جوارحي حتى يعرف ذلك في حالي فيؤنسني ويطمع أن يباسطني فلا يزيدني ذلك إلا مهابة وإجلالاً، كان رضي الله عنه يحبني ولا يظهر ذلك لي ويقرب غيري

---

(١) **الحق**: وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما. (المعجم الوسيط).

(٢) رواه البخاري (١/ ٤٨٣ و ٤٨٤) في سترة المصلي، باب إثم المار بين يدي المصلي، ومسلم رقم (٥٠٧) في الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، والموطأ (١/ ١٥٤ و ١٥٥) وأبو داوود رقم (٧٠١) والترمذي رقم (٣٣٦) في الصلاة، باب ما جاء في كراهية المرور بين يدي المصلي .

ويطردني ويصوب كلام غيري ويوبخني في المحافل والمجالس ويشتمني حتى كان أصحابي الذين معي ينسبوني إلى قلة الهمة وهم معي تحت نظره وفي خدمته، فما برع من تلك الجماعة غيري والحمد لله.

الشيخ الأكبر والتصوف

وكان الشيخ رضي الله عنه يقول ذلك، ومما شاهدته منه رضي الله عنه ولم أكن قط رأيت رسالة القشيري ولا غيرها ولا كنت أدري لفظة التصوف على ماذا تنطلق فركب يوماً فرسه وأمرني وآخر من أصحابه أن نخرج إلى المنتيار وهو جبل عال على فرسخ من أشبيلية فخرجت أنا وصاحبي عند فتح باب المدينة وفي يد صاحبي رسالة القشيري وأنا لا أعرف ما القشيري ولا رسالته فصعدنا الجبل فوجدناه قد سبقنا وغلامه ممسك فرسه فدخلنا مسجداً في أعلى ذلك الجبل فصلينا واستدبر القبلة وأعطاني الرسالة وقال لي اقرأ فلم أقدر أن أضم كلمة على كلمة أخرى والكتاب يسقط من يدي من الهيبة فقال لصاحبي اقرأ فأخذه صاحبي فقرأ وتكلم عليه الشيخ فلم نـزل كذلك حتى صلينا العصر فقال الشيخ ننزل إلى المدينة فركب فرسه وألزمت يدي ركابه فجعل يحدثني بفضائل الشيخ أبي مدين وكراماته رضي الله عنه وأنا قد فنيت في كلامه فلا أحس بنفسي وأرفع إليه وجهي في أكثر الأوقات فأراه ينظر إلي ويبتسم ويهمز فرسه فيسرع وأسرع معه ثم وقف وقال لي انظر ما تركت خلفك فنظرت فرأيت الطريق الذي مشيته كله شوكاً يصل إلى معقد الإزار وشوكاً آخر منبسطاً في الأرض، قال: انظر إلى قدميك فنظرت إلى قدمي فلم أر بهما أثراً، قال: انظر إلى ثوبك فنظرت فلم أر أثراً قال: هذا من بركة ذكرنا أبا مدين رضي الله عنه، الزم الطريق يا بني تفلح وهمز فرسه وتركني، أخذت منه مسائل كثيرة ورأيت عنده ما لم أر من غيره، إذا أعطى المجاهدة للمريد يعملها معه وكذلك للاثنين والثلاثة يعمل مع هذا ومع هذا فتراه لا يفتر، قعدت معه بعد العصر فرآني اتقلقل للخروج فقال لي: ما شأنك فقلت له: علي أربع حوائج أريد أن أقضيها ولي أيام أروم قضاءها وأتعمل فيها ولا أجد الأشخاص الذين الحوائج

بأيديهم فتبسم وقال: إن تركتني و مشيت ما تنقضي لك منها حاجة فاقعد معي أذكر لك من أحوال أبي مدين رضي الله عنه وأنا أضمن قضاءها، فقعدت فلما حان وقت المغرب قال لي: اخرج الساعة إلى منزلك فإنك لا تصلي المغرب حتى تنقضي الحوائج كلها فخرجت والشمس قد غربت فوصلت إلى منزلي ومؤذن المغرب يؤذن فوالله ما أحرمت بالصلاة للمغرب حتى انقضت حوائجي، وكان من صدقي في صحبته أني أتمناه بالليل في بيتي لمسألة تخطر لي فأراه أمامي فأسأله ويجيبني ثم ينصرف فأخبره بذلك بكرة ويتفق لي معه هذا بالنهار في منزلي إن اشتهيته، ومناقبه وكراماته وإشاراته أكثر من أن تحصى فلنضرب عنها في هذه الرسالة صفحاً، ومن شعري فيه حين فارقته وأنا متوجه إلى مراكش وهو بسلا قاطن:

إنْ قِيلَ مَنْ في الوُجُودِ أَشْرَفُ ... سَيِّدُنَا يُوسفُ بنُ يَخلُفُ

رَبُّ المعَالي قَلْبُ المعَانِي ... أَرَقُّ شَخْصٍ قَلْباً وَأَلطَفُ

أَكْرَمُ مَنْ في الوجُودِ كَفاً ... أعظَمُ رَأْفةً وَأَعْطَفُ

أَثْبَتُهُم في النِّزالِ جَاشاً ... أَشَدُّهُم سَطْوة وَأَعْنَفُ

أَكْبَرُهُمْ هِمَّةً وَحَالاً ... أَشَدُّهُم لِلعُلا وَأَكْشَفُ

أَوْسَعُهُم في العُلُومِ بَاعاً ... أَشْرَحُهُم بَاطِناً وَأَعْرَفُ

أَكْمَلُهُم نِسْبَةً وَنَعْتاً ... أَرْفَعُهُم مَنْصِباً وَأَشْرَفُ

أَطْوَلُهُم في العُلا ذِرَاعاً ... أَعْلاهُم غَايَة وَأَوْقَفُ

أَلْطَفُهُم في القُلُوبِ مَعْنى ... أَوْضَحُهُم حِكْمَةً وَأَوْصَفُ

قَدْ يَكْسُفُ البَدْرُ في عُلاهُ ... وَبَدْرُ مَوْلايَ لَيْسَ يَكْسُفُ

والقصيدة طويلة أودعتها كتاب «إنزال الغيوب على مراتب القلوب» لنا فيما لنا هذه الطريقة من نظم ونثر خاصة، أفادني شيخنا هذا مسألة الوصال، وأنا سيد ولد آدم، وآدم ومن دونه تحت لوائي، والتدبير نصف العيش، وإذا أحب الله عبداً

ابتلاه، وقلب القرآن يس، ولم يسبقه أحد إلى هذه المسألة في بلادنا وغير ذلك مما لا أتذكره الآن فرضي الله عنه وأرضاه.

صالح العدوي

ومنهم رضي الله عنه صالح العدوي رضي الله عنهم، كان بالله عارفاً ومع الله في كل حالة واقفاً، تالياً لكتاب الله العزيز آناء الليل وأطراف النهار، لم يتخذ مسكناً قط، ولا تداوى قط، كان يعمل على مقام السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب،[١] كان لا يكلم أحداً يجالسه، يأتي عليه أوقات يدخل في صلاة الضحى فلا يزال واقفاً في الركعة الأولى حتى يقال له: قد زالت الشمس، كان إذا قام إلى الصلاة في اليوم الشديد البرد، يلقي عنه ثيابه حتى يبقى في قميص واحد وسروال وهو يتصبب عرقاً كأنما هو في ديماس، له في صلاته زئير وهمهمة لا يفقه ما يقول، لا يدخر شيئاً لغد البتة ولا يقبل مالا يحتاج إليه لا لنفسه ولا لغيره، كان يأوي ليلة إلى مسجد أبي عامر المقري، صاحبته سنين أكاد أعد كلامه معي من قلته، كان في بعض السنين يفقد من البلد إذا قرب عيد الأضحى، فأخبرني فقيه شاهد من شهود البلد أنه يحضر الموسم بعرفات، أخبره بذلك من شاهده، كان له بنا تعلق وإلى جهتنا تأمل انتفعنا به، أخبرني بأمور في حقي مما يتفق لي في المستقبل، فرأيتها كلها ما غادرت منها كلمة ، خدمه أبو على الشكاز، لم يزل بأشبيلية على هذه الحالة أربعين سنة حتى مات بها، فغسلناه ليلاً وحملناه على رقابنا إلى مقبرته وتركناه وانفصلنا عنه حتى صلي عليه ودفنه الناس، لم أر بعده على حاله مثله كانت حالته تشبه حالة أويس، وله أخبار كثيرة يطول ذكرها.

أبو عبدالله محمد الشرفي

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد الشرفي رضي الله عنه كان يلازم

(١) رواه مسلم رقم (٢١٨) في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب وانظر ما قاله النووي في شرح مسلم حول هذا الحديث .

الصلوات الخمس بجامع العديس بإشبيلية تورمت قدماه من طول القيام، كان إذا وقف في الصلاة تنحدر دموعه على بياض لحيته كأنها اللؤلؤ، سكن موضعاً نحو أربعين سنة ما أوقد فيه سراجاً ولا ناراً، بالغ في العبادة جهده، لقيني وأنا واقف على معتوه عندنا من جملة الناس، فلم أشعر به حتى أخذ بأذني وأخرجني من الحلقة وقال لي أنت تفعل هذا؟ فخجلت ودخلت معه الجامع، كان يخبرني بالشيء قبل كونه فيكون كما يخبرني، لم يتخذ في المسجد قط موضعاً معيناً ولا صلى قط في موضع واحد من المسجد صلاتين لا يتجرأ أحد عليه أن يقول له: ادع لي، فالذي يريد أن ينتفع بدعائه يراقبه إذا دخل المسجد أين يصلي فيه فيحرم بالصلاة إلى جانبه، فإذا جلس يدعو صاحب الحاجة بما يريده ويعلن فيقول الشيخ آمين خاصة، هكذا كانت دعوته. وسألته في الدعاء فدعا لي، وقد بدأني بالدعاء والحمد لله، وكلمني قبل أن أكلمه فإني كنت أهابه وانتفع به، وعاينت من بركاته أنه لما اقترب موته أخلى مسكنه، وقال: أريد سفراً، فخرج إلى القرية التي كان منها في الشرق على فرسخين، فلما وصل إليها مات رحمه الله تعالى. ونظر يوماً إلى غلام صغير على رأسه مكتل فيه رازيانج ورآه متحيراً فأشفق عليه واستدعاه والناس يرونه فقال: ما شأنك يا ولدي؟ قال: يا عم مات أبي وترك أولاداً صغاراً وليس لنا شيء فأصبحنا يومنا هذا وليس عندنا ما نأكل، وكان عند والدتي هذا الرازيانج[1] فقالت: يا ولدي خذه وبعه وسق لنا به قوت اليوم إن كفى فبكى الشيخ وأدخل يده في المكتل وأخذ منه حبات وقال هذا شيء طيب يا صبي قل لأمك عمي الشرفي أخذ منه قليلاً تجعلني منه في حل فأخذ بعض التجار المكتل وقال شيء أخذ منه هذا الشيخ حلت فيه البركة، فمشى إلى أم الصبي ودفع لها في المكتل سبعين ديناراً مومنية، وإنما قصد الشيخ هذا رحمة بهم رضي الله عنه.

---

(١) **الرازيانج**: هو الشمر والشمار: بقلة من الفصيلة الخيمية ومنه نوع حلو يزرع ويؤكل ورقه وسوقه نيئاً ونوع آخر سكري يؤكل مطبوخاً. (المعجم الوسيط)

أبو يحيى الصنهاجي

ومنهم رضي الله عنهم أبو يحيى الصنهاجي رضي الله عنه كان قد عمي وقد أسن، عاشرته فرأيته مجتهداً في العبادة وله قدم راسخة في الرياضيات والإشارات كبير الشأن ما رأيته قط يقعد إلا على كرسي صغير، مات عندنا باشبيلية رحمه الله وظهرت له كرامة بعد موته، فإن الجبل الذي دفناه فيه عال لا يخلو عن الريح أبداً فسكن الله الريح في ذلك اليوم واستبشر الناس وباتوا على قبره يقرؤون القرآن، فلما نزل الناس هبت الريح على عادتها، كانت صحبتي إياه شهوراً قبل موته، كان من أهل السياحات ملازماً للسواحل مؤثراً للخلوة رضي الله عنه.

أبو الحجاج يوسف الشبربلي

ومنهم رضي الله عنهم أبو الحجاج يوسف الشبربلي من شبربل قرية بالشرف على فرسخين من اشبيلية كان أكثر إقامته بالبادية، صحب أبا عبد الله ابن المجاهد كان يعيش من عمل يده، دخل الطريق قبل الحلم ولم يزل عليها حتى مات، كان ابن المجاهد إمام هذه الطريقة ببلادنا يقول التمسوا الدعاء من أبي الحجاج الشبربلي، وكان يكبره إذا زاره، أخبرني أبو الحجاج هذا بنفسه قال كانت زيارتي لابن المجاهد شيخنا كل يوم جمعة فزرته في يوم جمعة على عادتي فوجدته واقفاً على البناء يبني حائط داره التي يسكن بها وكان قد تهدم فبناه ليستر عياله فسلمت عليه فقال خالفت عادتك يا أبا الحجاج جئت يوم الخميس فقلت له بل هو يوم الجمعة فضرب يداً على يد وصاح أواه هذا ما فعل الضروري الذي لا بد منه فكيف لو زدنا، وناح وبكى على نفسه وتحسر على وقته، وكان أبو الحجاج متى ذكر لي هذه الحكاية يبكي ويقول هكذا تكون الرجال يبكون على فوات حظوظهم من الحضور مع الله، كان شيخنا هذا أبو الحجاج كبير الشأن لم يزل يأكل من عمل يده حتى ضعف عن العمل فصار يأكل من الفتح، وكان لما أسن وثقل عن الحركة يبكي ويقول يا بني فتح الله علي باب قصد الناس إلي وزيارتهم وعرض بي للفتن

ومن أنا ويااليتني سلمت ودت أن أجد قوة حتى أزور الناس في ديارهم ولا يجيئون إلي، وكان رحمة للعالم، كان إذا دخل عليه عمال السلطان يقول لي يا بني هؤلاء هم أعوان الحق المشتغلون بأسباب العالم ينبغي للناس أن يتفرغوا للدعاء لهم أن يجري الله الحق على أيديهم ويعينهم، وكان يقبل من السلطان ما دخل عليه أحد قط وفي بيته مأكول إلا جعله أمام الداخلين كثروا أو قلوا وكثر الطعام أو قل، لا يترك شيئاً يكون له البتة، ودخل عليه جماعة فقال لي يا بني أنـزل لهم المكتل فأنـزلته فلم أجد فيه غير ملء الكف حمصاً فجعلته بين أيديهم، ورأيت له بركات كثيرة وكان ممن يمشي على الماء، كان له بداره بئراً يستقي منها لوضوئه فرأينا بجانب البئر شجرة الزيتون قد علت وأورقت وحملت، جسمها غليظ، فقال له صاحبي: يا سيدنا لم غرست هذه الزيتونة في هذا الموضع وضيقت بها على البئر فالتفت إلينا ونظر وكان فد انحنى ظهره من الكبر فقال إني ربيت في هذه الدار من صغري ووالله ما رأيت قط هذه الزيتون إلا الآن، وكان بهذه المثابة من الاشتغال بقلبه ما دخلت عليه قط ولا غيري إلا وجدته قارئاً في المصحف لم يمسك كتاباً غير المصحف حتى مات، وكانت له هرة سوداء لا يستطيع أحد أن يمسكها ولا يلقي يده عليها وكانت ترقد في حجره وكان يقول لي: لهذه الهرة تمييز لأولياء الله فهذا الفرار الذي ترى فيها ما هو سدى فقد جعلها الله تأنس بالأولياء فشاهدتها مراراً عنده فيدخل إنسان فتحك خدها في رجله وتتعلق به ويدخل آخر فتفر منه، ولقد دخل عليه شيخنا أول مرة دخل عليه أعني أبا جعفر العريبي رحمه الله تعالى الذي ذكرته أولاً وكانت الهرة في البيت الآخر فخرجت من البيت ونظرت إلى شيخنا أبي جعفر وفتحت يديها على عنقه وعانقته ومرغت وجهها على لحيته فقام إليه أبو الحجاج حتى أجلسه ولم يقل شيئاً فأخبرني أبو الحجاج أن ذلك الفعل ما رآها فعلته قط مع غيره ولم تزل عنده حتى خرج من عنده، وجاءه رجل وأنا عنده في جماعة وفي عينيه وجع شديد يصيح منه مثل النفساء فدخل عليه وقد شق على الناس صياحه فاصفر وجه الشيخ وارتعد فرفع يده المباركة ووضعها على عينه

فسكن الوجع من حينه واضطجع الشخص كأنه الميت ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس، وكان له صاحب من صالحي مؤمني الجن أبداً لا يبرح من عنده، دخلت عليه مع شيخنا أبي محمد رضي الله عنهما فقلت يا سيدنا هذا من أصحاب أبي مدين فتبسم الشيخ وقال عجب أمس كان عندنا أبو مدين رضي الله عنه نعم الشيخ، وأبو مدين رضي الله عنه إذ ذاك ببجاية وبينهما مسيرة خمسة وأربعين يوماً فكان كشفاً بينهما، وكانت هذه الحالة كثيراً تتفق لي مع أبي يعقوب فإن أبا مدين كان قد سكن عن الحركة، وأحفظ من أخباره مما شاهدته كثيراً تضيق هذه العجالة عنه وهكذا كل من أذكره وإنما أذكره ليعلم أن الزمان لا يخلو من الرجال.

أبو عبد الله محمد بن قسوم

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد بن قسوم رضي الله عنه صحب ابن المجاهد وقرأ عليه حتى مات واستخلفه في موضعه فجرى على حالته وزاد فجمع بين العلم والعمل وكان مالكي المذهب قائلاً بشرف العلم ومرتبته صحبته وقرأت عليه ما يصلح لي في طهارة وصلاة وسمعت عليه.

دعاء رسول الله ﷺ

كان دعاؤه في خاتمة مجلسه أبداً «**اللهم أسمعنا خيراً وأطلعنا خيراً وارزقنا اللهم العافية وأدمها لنا واجمع اللهم قلوبنا على التقوى ووفقنا لما تحبه وترضاه ربنا لا تؤاخذنا الخ وخواتم البقرة**»[١] وهو الدعاء الذي التزمناه في خواتم مجلسنا ورأيت النبي ﷺ في المنام في الحرم الشريف وقارئ يقرأ عليه صحيح البخاري فلما فرغ دعا بهذا الدعاء فزدت عليه غبطة، كان رضي الله عنه من الجد والاجتهاد غاية وكان معتدل العبادة، التزم وظائف عمر بها أوقاته، لم يزل محافظاً عليها حتى الآن، له زمام يقيده كل يوم، كان كل ليلة يحاسب نفسه فإذا وجد خيراً يحمد الله

(١) لم أجده.

وإذا وجد غير ذلك يقابله بما يجب له من الاستغفار والتوبة، وما يجري مجرى ذلك، وكان يعيش من خياطة القلنسيات فقعد يوماً وقد فرغت نفقته فأخذ المقص وأسباب شغله فسمع الباب قد فتح ثم أغلق فخرج فلم يجد أحداً وقد رمى له بستة دنانير فأخذها ودخل ورمى المقص في البئر وقال: الله يدبر عيشي وأنا أدبره وأتعنى فيما ضمن لي الرزق، يطلبك لا أنت تطلبه، فلازم باب الفتح وترك الحرقة إلى أن، قسم ليله ونهاره على ما أقول لك، إذا صلى الصبح ذكر اللهعزوجل حتى تطلع الشمس فيركع ركعتين، ويدخل منزله فيأخذ كتبه ويخرج إلى الطلبة فيقرؤون عليه العلم إلى ارتفاع النهار، ويدخل منزله فإن لم يكن صائماً أخذ شيئاً من الغذاء وصلى ضحاه ونام يسيراً ثم يقوم فيسبغ الوضوء فإن كان له تقييد قيده، وإلا ذكر الله تعالى فإذا جاء وقت الظهر فتح المسجد وأذن ودخل منزله يتنفل ويذكر الله تعالى إلى وقت دخول الصلاة متمكناً يدخل إلى المسجد يقيم الصلاة لا يتنفل، يتمايل في محرابه تمايل النشوان مما يجد في باطنه من الوجد بكلام الله تعالى فإذا سلم خرج وتنفل راتبة الظهر وأخذ المصحف ففتحه على ركبتيه ومشى بيده على حروفه وعيناه في المصحف يرتل القرآن بحنان وتدبر حتى يتم خمسة أجزاء وقد حان العصر فأذن ودخل مسجده يتنفل حتى تجتمع الجماعة فيصلي بهم ثم يدخل منزله يذكر الله تعالى حتى تجيء المغرب فيخرج ويؤذن ويصلي ويدخل بيته فيجيء بين العشاءين فيجري هذا الوقت بالتنفل (فإذا جاء) وقت العشاء أو قربها أسرج القناديل في المسجد وأذن ودخل منزله يتنفل حتى يجتمع الجماعة (فيخرج ويصلي) بهم ثم يغلق باب المسجد ويدخل منزله يحاسب نفسه في حركاته وألفاظه وجميع ما يعلم أن الملك يقيده عليه فتكون حالته على حسب ما يجد في صحيفته ثم يقوم إلى سريره فينام فإذا مضى من الليل جزء قام فإن كان أصاب أهله اغتسل ودخل مصلاه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة في حضرة التوحيد وتارة في الجنة وتارة في الاعتبار وتارة في الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصبح فيخرج من صلاته وقد أطلع على علوم كثيرة في تلاوته من الله تعالى لم تكن عنده، فهمه الله إياها من القرآن

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فإذا طلع الفجر فتح باب المسجد وأذن وأسرج ودخل منزله فركع سنة الفجر وقعد في منزله يذكر الله فإذا أسفر خرج فصلى بالناس، هكذا ديدنه ودأبه، لا يأتدم في الجمعة إلا مرتين في ليلة الاثنين وليلة الجمعة، سني الحال والمقام كثير المعرفة قل أن يرى مثله، جمعت بينه وبين صاحبي عبدالله بدر الحبشي وصلى خلفه.

أبو عمران موسى بن عمران المارتلي

ومنهم رضي الله عنهم أبو عمران موسى بن عمران المارتلي رضي الله عنه أنشدني لنفسه في شعر مجنس يخاطب نفسه:

فَأَنْت ابنُ عمرانَ مُوسَى المسُيء ... وَلَسْتَ ابنَ عِمرانَ مُوسى الكَلِيمَا

كان رضي الله عنه قد أخذ نفسه بالشدائد، لزم بيته منذ ستين سنة لا يخرج، جرى على طريق الحارث بن أسد المحاسبي لا يقبل من أحد شيئاً ولا يطلب حاجة لنفسه ولا لغيره، رأيت له رؤيا تدل على انتقاله من مقامه إلى ما هو أعلى منه فقال لي: بشرتني بشرك الله بالجنة فلم يكن إلا يسيراً ونال المقام الذي رأيته له فدخل عليه في اليوم الذي حصل فيه، السرور باد على وجهه فقام إلي وعانقني.

فقلت له هذا تأويل رؤياي من قبل وبقيت دعوتك أن يبشرني الله بالجنة، فقال: يكون إن شاء الله تعالى، فما تم الشهر حتى بشرني الله بالجنة بإيجاد آية منه ظهرت لي مصدقة لدعوى المبشر عن الله تعالى تحرى بها على صدق بشراه لي بالجنة فأنا أقطع بها ولا أشك البتة في أني من أهل الجنة كما أني لا أشك في نبوة محمد ﷺ غير أني لا أدري أتمسني النار أم لا عافانا الله تعالى وإياكم وأرجو من كرمه أن لا يفعل، ولهذا الشيخ شأن كبير ومعرفة تامة وأدب عظيم، مقبوض في عموم أحواله، حسن البشاشة لزواره، لنا معه مواطن عجيبة، كانت همته متعلقة بالله في حفظنا وعصمتنا من الفتن والرجوع فقضى في ذلك وشهد لي وبشرني وقال منه لي بمحضر صاحبي عبد الله بدر الحبشي كنت أتخوف عليك جداً لصغر سنك وعدم المعين

وفساد الزمان وما ظهر لي في أهل هذه الطريقة من الفساد وهم الذين ألزموني العزلة لما عاينت من فساد الأحوال الحمد لله الذي أقر عيني بك، أنشدني من شعره كثيراً وطلب مني أن أقيد له من شعري ففعلت وقرأته عليه فسر به فمما كتبت له من أبيات أستحسنها جداً ووقعت منه بموقع فكان منها:

تَرَكْتُ هَوَايَ فِي هَوَاهُ فَلا هَوَى ... وَكُلُّ مُحِبٍّ لم يَكُنْهُ فَقَد هَوَى

وَأَجْرَيْتَ طَرْفَ الأُنْسِ في حَلْبَةِ الفَنَا ... وَجُزْتَ بِحارَ الشَّوْقِ في مَرْكَبِ الهَوَى

وَأَلْقَيْتَ مُرسِى الوَصْلِ في سَاحِلِ الرِّضَا ... وَنَادَاني الحَقّ المبِينُ مِنَ الهَوا

أَلا فَاكتُبُوا عَبدي مِنَ العارِفِينَ بي ... وَهَذَا نِدَاءُ الحَقِّ في مَوْضَع السَوَى

فَرَاجَعْتُهُ لَمَّا سَمِعْتُ نِدَاءَه ... بِأَنْ لَيْسَ لي هَمٌّ وَلا بُغْيَةٌ سِوى

وِصَالُكَ يَا مَوْلي أَلُوذُ بِقُرْبِهِ ... فَإِنِي أَخَافُ سَطْوَةَ البَيْنِ وَالنَّوَى

فَآمَنَنِي مِنْ كُلِّ شَيءٍ وَقَالَ لي ... ظُنُونَكَ حُسْنٌ أَنَّ لِلمَرْءِ مَا نَوَى

ولا أذكر من القصيدة اليوم إلا هذا وخرجت عني منها أبيات ذكرتها في كتاب إنزال الغيوب، ومن ذلك أيضاً:

مُذْ حَلَّ كَاتِبُ حُبِّ الله في خَلَدِي ... وَخَطَّ سَطْراً مِنَ الأَشْواقِ في كَبِدِي

ذُبْتُ اشْتِياقاً وَوَجْداً في مَحَبتِهِ ... فَآهٍ مِنْ طُول وَجْدِي آهٍ مِنْ كَمَدِي

يَا غَايَة السُّؤْلِ والمأمُولِ يَا سَنَدِي ... شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيْد لا إِلى أَحَدِ

يَدِي وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي مَخَافَةَ أَنْ ... يَشُقَّ صَدْرِي لَما خَانَني جَلَدِي

مَا زَالَ يَرْفَعُها طَوْراً وَيُخْفضُها ... حتى جَعَلْتُ يَدِي الأُخْرى تَشُدُّ يَدي

مَرَّ الفُؤادُ عَلَى الجثْمانِ مُرْتَحِلاً ... إلى الحبِيبِ الذي يُفني وَلَيْسَ يَدي

مَا زِلْتُ أَطْلُبُهُ وَجْداً وَأَنْدُبُهُ ... بِعَبْرةٍ حَيَّرتها زَفْرَةُ الخلَد

حتى سَمِعْتُ نداءَ الحق مِنْ قِبَلِي ... مَنْ كَانَ عَبْدِي لم يَنْظُر إِلى أَحَدِ

فَمُتْ بِوَجْدِكَ أَو مُتْ إِنْ تَشَا طَرَباً فَإِنَّ قَلبَكَ لا يَلوِي عَلَى الجَسَدِ
فَقُلْتُ وَالحبُّ يَطْوِينِي وَيَنْشُرُنِي لا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ الفَرْدِ وَالعَدَد
لمَا شَهِدْتُكَ يَا مَن لا شَبِيه لَهُ وَصِحْتُ مِنْ شِدَّة الأَشْوَاقِ وَاكَبِدِي

إلى آخر الأبيات فإني لا أذكرها الآن ، دخلت على هذا الشيخ فقال: يا بني عليك بنفسك فقلت له: إن شيخنا أحمد دخلت عليه فقال لي: يا بني عليك بالله فممن أسمع فقال: يا بني أنا مع نفسي وأحمد مع ربه وكل واحد منا دلك على ما يقتضيه حاله فبارك الله لأبي العباس وأوصلني إليه فهذا ما عانيت من إنصافه، كان يباسطني غاية البسط فلا يزيدني ذلك إلا مهابة وتعظيماً وكان يتعجب من حفظي الأدب معه في حين بسطه فيرجع من المباسطة إلى باب العبودية، فحينئذ أباسطه لسر عجيب أن تأملته يا وليي وقفت عليه إن شاء الله تعالى.

أبو عبدالله الخياط وأبو العباس الاشبيلي

ومنهم رضي الله عنهم الأخوان الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط وأبو العباس أحمد الاشبيليان رضي الله عنهما صحبتهما زماناً باشبيلية إلى عام تسعين وخمسمائة خرجا يريدان الحج وهو العام الذي رحلت فيه إليك، ووصلا مكة فأما أحمد فجاور بها سنة وخرج إلى مصر ودخل طريق الملامتيه وأما محمد فجاور بها خمسة أعوم ولحق بأخيه بمصر فأقمت معهما وبأبي عبد الله زمانه فصمت معهما رمضان وخرجت إلى القدس الشريف ومشيت إلى مكة شرفها الله تعالى وأقمت بها إلى الآن وفي قلبي من فراقهما لهيب، أما أبو عبد الله فإنه رجع إلى الطريق قبل أخيه بزمن طويل وكانت له والدة وكان باراً بها رضي الله عنه لزم خدمتها حتى ماتت غلب عليه الخوف كان إذا صلى يسمع لقلبه دوي على بعد سريع الدمعة غزيرها طويل الصمت دائم الحزن كثير الفكرة شديد التأوه ما رأيت قط أخشع منه لا تراه أبداً إلا مطرقاً ضارباً بعينه الأرض لا يمازح أحداً ولا يعاشره بريء من المداهنة قوي في المناصحة لا يستحي في الحق من أحد ولا تأخذه في الله لومة

لائم لا يداري ولا يماري، ابتلي بالفقر والضراء فصبر، له شأن عجيب وهمة رفيعة وكنت أتعشق به وأنا صغير عند الذي كنت أقرأ عليه القرآن وكان جاراً لنا، كان إذا دخل المسجد هابه كل من رآه ما عاينته قط يكلم أحداً مبتدئاً ولا يجيب إذا كلم إلا في ضرورة، يحفظ دينه حفظاً، ما تمنيت من كل من رأيت أن أكون مثله إلا هو، وآخيته لما رجعت إلى هذه الطريقة وفرح بي ولازمته وانتفعت بآدابه وأخذت من خلقه كان يحتمل الأذى ويكف جفاه، صدوق الرؤيا كثير النجوى، ليله قائم ونهاره صائم لا تجده فارغاً قط، يحب العلم وأهله كنا قد اجتمعنا أربعة أنا وهو وأخوه ورابع لنا على السواء في كل ما يفتح به علينا فلم أر أياماً قط في عمري أحسن من تلك الأيام، رأيت من همته رضي الله عنه أن كان بين منزلي ومنزله بعد كثير فأذن بالعتمة وقد وجدت في خاطري الانزعاج إلى الوصول إليه والرجوع إلى منزلي وتحرك الخاطران معاً فحرت كيف أجمع بين الخاطرين وكنت أعمل على أول الخاطر فاشتددت إليه عدواً إلى أن دخلت عليه فوجدته واقفاً في وسط الدار وهو مستقبل القبلة وأخوه أحمد يتنفل فسلمت عليه فتبسم وقال لي ما الذي أبطأ بك قلبي متعلق بك عندك شيء وكان في جيبي خمسة دراهم فدفعتها له فقال جاءنا فقير يقال له علي السلاوي وما عندنا شيء ورجعت أشتد إلى موضعي، كان يخدم الفقراء بنفسه ويؤثرهم بالطعام واللباس وكان رحيماً عطوفاً رؤوفاً شفيقاً رفيقاً، يرحم الصغير ويعرف شرف الكبير يعطي كل أحد حقه، له الحق على الناس وليس لأحد عليه حق إلا الله تعالى، على هذا فارقته وعلى هذا وجدته الآن وعليه تركته فالله يجمع بيني وبينه في عافية بلا محنة بمنه وكرمه.

وأما أخوه أبو العباس أحمد وما أدراك ما أحمد جمع الفضائل واجتنب الرذائل عرف الحق فلزمه وكشف له عن السر فكتمه هو ممن ينادي من وراء حجاب قوي المجاهدة كثير المساعدة وطيء الأكناف حسن المعاشرة سمح الخليقة موافق فيما يرضي الله مخالف لما لم يرض الله لزم الاسم فسما وعمر ذكره كل أرض وسما تراه كأنه ذاهل سريع الحركة كأنه مطلوب بثأر يخضع تحت وارد الأسرار

كثير المكاشفة كنا إذا أخذنا في مسألة غيب عنا ثم يرجع فيخبرنا بوجه من وجوه ما نحن فيه، هذا الحال له مستمر إلى الآن، لزم خدمة أخيه لم يخدم غيره فكل ما هو فيه من بركة أخيه، لقي شيخنا العريبي وأبا عبدالله محمد بن جنيد وجماعة من أصحابنا، أراد صحبتنا إلى مكة المشرفة لولا مرض أخيه ولو كان صحيحاً رحلنا بجملتنا، حلت بمصر المسغبة والوباء الذي هلك فيه أهلها فمشى يوماً فرأى الأطفال الصغار الرضع يموتون جوعاً فقال يا رب ما هذا فنودي يا عبدي هل ضيعتك قط قال لا قال فلا تعترض هؤلاء الأطفال الذين رأيتهم أولاد الزنا وهؤلاء الكبار هم قوم عطلوا حدودي فأقمت عليهم حدودي فلا يكن في نفسك من ذلك ثم سري عنه فبقي راضياً بتلك الحالة للخلق، وعنده من هذه المخاطبات كثير، وأما الإيثار وتوسيعهما على الخلق وتضييقهما على أنفسهما فلا أحد فوقهما في ذلك جمع الله بيني وبينهما في عاقبة ولا فرق بيني وبينهما.

أبو عبدالله محمد بن جمهور

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد بن جمهور رضي الله عنه كان من أقران أبي علي الشكاز وأبي عبد الله الخياط الذي ذكرناه في السن والحال وكان مجتهداً في العبادة وكان يقرأ القرآن والعربية لم يقرأ شعراً قط أخبرني أبو الحسن العثماني قال: كنت وأنا صغير أقرأ القرآن عليه، فسمع دفاً يضرب فجعل أصابعه في أذنيه فسكت، فقعد ساعة وأصابعه في أذنيه، ثم قال لي: هدأ هذا الدف أم لا؟ فقلت: لا، فلما استمر ذلك قام وأصابعه قد سد بها أذنيه وانصرف إلى داره وأرسل إلي فجئت إليه ودخلت عليه وأتممت عليه جزئي، كان رحمه الله تعالى إذا سمع من يقرأ عشراً في المسجد ليسأل به أو سمع سائلاً في المسجد يسد أذنيه، كان من الراكعين الساجدين حتى قبضه الله تعالى إليه، وكان قوي القلب ضعيف البدن مصفر اللون شديداً على نفسه فيقال له ارفق بها فيقول للرفق أجهد، وكان يقوم إلى حزبه من الليل فيقوم حتى يسقط من قامته، يضع خده لينام فيقول:

يَـا خَـدُّ إِنَّـكَ إِنْ تُـوَسَّـدَ لَـيـنـاً ... وَسِّدْتَ بَعْدَ المَوْتِ صُمَّ الجَنْدَلِ

ثم يثب كأن أفعى قد لدغته إلى مصلاه، فلا يزال هكذا حتى يصبح، ولقد مات وأنا في خدمة أبي يعقوب الكومي فأخذه الذي أنـزله في القبر وجعل الجندل تحت خذه فعلمت أن الله صدقه في قوله: (يا خد إنك إن توسد لينا...إلخ) وكان رحمه الله كثير النفور من الخلق، يحب الخلوة والعزلة ورعاً زاهداً عارفاً بالله واقفاً مع الله شديد المعاملة طالباً للمواصلة يحب أهل الله وأهل القرآن، توفاه الله صغير السن في عنفوان شبابه ونار اجتهاده يقول لنفسه: لازال دأبي ودأبك هذا حتى أموت ما فاقه أحد في العبادة.

أبو علي حسن الشكاز

ومنهم رضي الله عنهم أبو علي حسن الشكاز رضي الله عنه، كان عندنا بإشبيلية وبها مات، هو الذي خدم صالحاً العدوي شيخنا حتى مات، كان كثير الدمعة لا تزال عينه تهطل أبداً، كان لي عم أخو والدي، وكان من أهل الله وخاصته، وكان أبو علي يلازمه، فكنت أبيت معه، فألقي الحصير الجديد له يصلي عليه، فتجري دموعه فتسقط على الحصير فأقلعه في اليوم الثاني وموضع دموعه قد تعفن كله وانتثر، عاشرته من وقت دخولي في هذه الطريقة حتى مات، كان مولعاً بالنكاح جداً لا يستغني عنه، فأراد شيخنا الشبربلي يأخذه لابنة أخيه، فمشت إليه أم الزهراء فقالت: يا أبا علي إن أبا الحجاج يحب أن يعطيك بنت أخيه وكان هذا يوم الأحد، فأطرق ساعة إلى الأرض كأنه يحدث، ثم قام فقال: أنا كنت من أحب الناس في مصاهرته، ولكن قد تزوجت وبعد خمسة أيام من يومنا هذا أدخل بزوجتي عروساً، فقالت له: بنت من تزوجت قال لها: ستري ذلك اليوم وانصرف إلى منزله ولزم فراشه حتى انقضت خمسة أيام فمات رحمه الله تعالى كان يمد يده إلى ما وجد من نبات الأرض من أعظمه مرارة فيطعمك إياه كأنه حلواء، رأيت له بركات كثيرة انتفعت بصحبته، كان قد عمل على الأربعين السهلية ،وكان شجاعاً يعيش من عمل يده، رآه أخوه بعد موته فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: يعطيني كل يوم عمل ثمانية أيام، كان دائم الصيام والمواصلة كثير القيام، منقبضاً عن الناس

غير مجالس لهم، يحن إلى جنسه، كان مليح الدعابة يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكان يعجبه المزح بالحق ويكره الكذب وأهله ولا يحتمله.

خرج يوماً إلى دور بني صالح بجلود له لينقعها في النهر ويبسطها في الشمس، فمرت به امرأة من أهل أشبيلية وفيهم وفي نسائهم حلاوة وظرافة، فقالت لصاحبتها: تعالي يا أختي نمازح هذا الرجل فإنه شكاز «والشكاز عندنا المشتغل بهذه الجلود الرقاق على نوع ما يبيضها ويلينها كثيراً بعد شدتها فاتخذ أهل البلدة اللفظة الشكاز لقباً للرجل لا يقوم بالنساء أي لين العضو مثل الجلد الذي يعمله» فوقفت عليه المرأة وهو يذكر الله تعالى وكان هو كثير الذكر لا يفتر، فقالت: السلام عليك يا أخي فقال: وعليك السلام ورجع إلى ذكره فقالت له: ما صنعتك وماحرفتك؟ فقال لها: خل عنك هذا، وعلم ما تريده، فقالت له: لابد من هذا فتبسم وقال لها: أنا رجل أبل اليابس وألين الشديد وأنتف الشعر، فولت وهي تضحك وقالت: أردنا أن نرميه فرمانا، وكان جليل الشأن سليم الصدر، ما أضمر شحناء لأحد قط، لا يعلم ما الناس فيه وما يتخيل أن في الوجود من يعصي الله تعالى.

أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي الطائي

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي الطائي رضي الله عنه وهو عمي شقيق والدي، دخل هذا الطريق في آخر عمره على يد صبي صغير، لم يدر ما هذا الطريق، دخله وهو في عمر الثمانين، فلازم المجاهدة والسواحل حتى برع فيه، كانت له في كل يوم ختمة لازمة يهب نصفها لذلك الصبي الذي رجع على يديه بصره ذلك بالطريق وكان رحمه الله تعالى يجلس في البيت فيقول: قد طلع الفجر فسألته: من أين تعرف ذلك فقال: يا بني إن الله يوجه ريحاً من تحت العرش تهب من الجنة فتخرج بريحها عند طلوع الفجر يشمها كل مؤمن في كل يوم، أصابته أدرة[1] كبيرة فكان يجعلها أمامه (مثل المخدة) الكبيرة وكان له ولد

(١) الأدرة: انتفاخ الخصية لانسكاب سائل فيها. (المعجم الوسيط)

خلف قد أقرح قلبه فدعا عليه فمرض، وكان يسأل الله أن يقدمه أمامه و حينئذ يموت، فمات ابنه قبله فدفنه، وقال: الحمد لله أني أعيش بعده أربعة وأربعين يوماً وأموت فعاش كما قال ومات، ولما كانت ليلة وفاته قعدنا عنده بعد صلاة العشاء وهو مستقبل القبلة فوجد بعض راحة، أدرته وقد عظمت فقال لنا: استريحوا وارقدوا فأخذنا مضاجعنا، فقمت إليه في السحر فوجدته كما فاضت نفسه رحمه الله تعالى وما شاهد أحد موته، وطلبنا تلك الأدرة فلم نجد منها شيئاً، فقلنا: لعلها كانت رياحاً وبقي الجلد، فإذا به مثل جميع الناس ما عنده شيء، فعجبت أن ستره الله وأخفاه. كان يخبرنا بعجائب كان عمره من وقت رجوعه إلى هذا الطريق إلى أن مات ثلاثة أعوام خاصة، مات قبل أن أدخل هذا الطريق رضي الله عنه.

أبو محمد عبد الله بن الأستاذ المروزي

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن الأستاذ المروزي رضي الله عنه خدم الشيخ أبا مدين، وكان الشيخ يسميه الحاج المبرور، وحج صحبة عبد الرزاق، صاحب بمكة أبا عبد الله بن حسان ، طلب ابن حسان أن يعطيه ابنته رغبة فيه فأبى أن يأخذها مخافة أن لا يقوم بحقها، كان الشيخ أبو مدين يحبه جداً قال له: يوماً يا عبد الله كبر عليَّ دعائي الناس إلى الله ولا يجيب أحداً وأريد أن أصطفيك لنفسي، تخرج معي إلى بعض هذه الجبال فألزم مغارة تصحبني فيها إلى أن أموت، قال: ففرحت بذلك وعلمت أن لي عند الله مكاناً فلما كان في الليل قال: عبد الله نمت فرأيت الشيخ في النوم إذا تكلم على الناس صار شمساً وإذا سكت صار قمراً، فقصصتها عليه بكرة فتبسم، وقال الحمد لله يا ولدي أريد أن أكون شمساً فإن الشمس تنفي كل ظلمة وتكشف كل كربة. كان هذا عبد الله له همة فعالة وصدق عجيب، سافر من عند الشيخ أبي مدين إلى الأندلس بسبب والدته، فأودعه الشيخ أبو مدين بن سلامة إلى أبي عبد الله الشيخ المسن بمدينة المرية، المعروف بالغزال من أصحاب ابن العريف من أقران أبي مدين وأبي الربيع الكفيف الذي كان بمصر وعبد الرحيم الذي كان بقنا وأبي النجا الذي كان بجزيرة الذهب رحمهم الله تعالى،

فلما وصل إلى المرية قصد إلى الشيخ أبي عبد الله فوجد أصحابه قعوداً، فقال لهم: استأذنوا لي على الشيخ، فقالوا: الشيخ نائم في هذه الساعة ولم يقبلوا عليه، فعز عليه ما هم فيه من كثافة الحجاب حيث لم يعرفوه، فقال لهم: إن كنت جئت إليه في الله فالله يوقظه الساعة، فإذا الباب قد فتح والشيخ قد خرج يمسح النوم عن عينيه، فقال: أين هذا الذي جاء؟ فسلم عليه وأكرم نزله، وكان الغالب على أبي محمد البسط، وكان أصحاب الشيخ مقبوضين، فعندما ودعهم وانصرف قال له أصحاب الشيخ: لو انقبضت يا أبا محمد من هذا البسط الذي أنت فيه، فقال لهم: البسط ما هو فقالوا: رحمة قال: والقبض؟ ما هو؟ قالوا: عذاب، فقال: اللهم لا تنقلني من رحمتك إلى عذابك، فخجلوا وانصرف عنهم، ومن أخباره رضي الله عنه أنه لما وصل إلى غرناطة نزل عند الشيخ أبي مروان، وكان قد عرفه عند أبي مدين وقد رأى أبو مروان من أصحاب الشيخ أبي مدين في حق رجل مرض منهم فأخذوا عنه مرضه وحملوه فاستراح من حينه، فأخبر أصحابه بغرناطة، فلما وصل شيخنا عبدالله المروزي إليها قال أبو مروان والناس قد اجتمعوا من أجله في الدار وقد جعلت بين أيديهم مائدة وقد جعلت عليها مجبنات بعسل وكان ابن صاحب الدار قد مشى في السحر إلى قرية له قريبة من البلد فتأسف أهل المجلس لما لم يحضر معهم الطعام ابن صاحب الدار؟ فقال لهم أبو محمد المروزي بعدما أكل وشبع وأكل الناس: إن شئتم أكلت عنه هنا ويشبع هو في قريته من هذا الطعام بعبنه، فارتابوا من كلامه في باطنهم وظاهرهم، فقال له أبو مروان: بالله يا أبا محمد افعل ذلك، فقال بسم الله، وابتدأ يأكل حتى كأنه ما أكل شيئاً حتى وقف، وقال قد شبع وإن زدت عليه أكثر من ذلك يهلك، فبهت أهل المجلس وعزموا أن لا يبرح أحد منهم حتى يصل ذلك الرجل الذي أكل عنه.

فلما كان عشية ذلك اليوم دخل عليهم من القرية، فقاموا إليه وأنزلوه، وقالوا: نراك جئت بزادك الذي حملته معك ما أكلت منه شيئاً، فقال لهم يا إخوتي اتفق لي اليوم شيء عجيب، أنا عندما وصلت إلى القرية وقعدت، فإذا أنا أحس بمجبنات بعسل تنزل في حلقي فتستقر في معدتي حتى شبعت ولو زادت علي أهلكتني، وأنا

الآن شبعان منها أتجشى، فتعجب القوم وفرحوا أن رأوا رجلاً أخبر بالمسألة كيف جرت، أخبرني بها بدار عبد الله الشكاز الباغي، الشخص الذي أكل عنه فشبع، ومعي صاحبي عبد الله بدر الحبشي، ونحن في جماعة وتأسف، وقال: من مثل عبد الله المروزي ما رأينا مثله. ولقد أطلعني الله عز وجل ليلة على المقامات ومشى بي عليها، حتى وصلت مقام التوكل فرأيت شيخنا عبد الله المروزي في وسط ذاك المقام، والمقام يدور عليه كدوران الرحا على قطبها، وهو ثابت لا يتزلزل فكتبت له بذلك ، عاشرته معاشرة وانتفعت به وله امرأة في غاية الجمال صغيرة السن أحسن منه وأقوى، وكان سيدنا هذا عند شمس أم الفقراء بمرشانة الزيتون في يوم أربعاء، فقالت العجوز: تمنيت أن يأتينا غداً أبو الحسن بن قيطون فاكتبوا إليه عسى يصل غداً وكان في بلد قرمونة بينهما سبعة فراسخ، وكان هذا أبو الحسن يعلم الصبيان القرآن بقرمونة ويعطل الخميس والجمعة، فقال أبو محمد سيدنا رضي الله عنه: هكذا تعمل العامة، فقالت له العجوز: فماذا تفعل؟ قال: أسوقه بهمتي، فقالت: أفعل، فقال: قد حركت الساعة خاطره بالوصول إلينا غداً إن شاء الله تعالى، فلما أصبحت قالت له: نراه ما جاء، قال: غفلت عنه ولكني أخرجه لكم الساعة، فأرسل إليه همته فلما كان قبيل الظهر دخل عليهم على غفلة أبو الحسن المذكور فتعجبوا، فقال المروزي: سلوه ما الذي أمسكك عنا إلى هذا الوقت وكيف خطر لك ومتى نويت الوصول إلينا؟ فقال: أمس وقت العصر، وجدت في باطني قائلاً يقول: مر غداً إلى العجوز بمرشانة، فقلت لصبيان المكتب: لا يجيء أحد منكم غداً، فلما أصبحت فتر عني ذلك (وهو الوقت الذي غفل سيدنا أبو محمد) قيل له ايه، قال: فوجهت إلى الصبيان ووصلوا وأخذوا ألواحهم ليكتبوا، فأنا كذلك إذ وجدت قلبي قد انقبض وشد عليه، وقيل: أخرج الساعة إلى مرشانة إلى زيارة العجوز، فقلت للصبيان: سيروا إلى منازلكم وهو كان خروجي إليكم فهذا الذي أبطأني فقالوا له: اتفق من الأمر كذا وكذا ووصفوا له الحال فتعجب، وقال: هذا والله العظيم كان، فكان بعد ذلك ينظره بعين التعظيم، واهتز وأخذ في الرحلة أبو الحسن المذكور إلى المرية إلى شيخ كان بها يقال له أبو عبد الله الغزال

رحمه الله تعالى من أصحاب ابن العريف من أقران أبي الربيع الكفيف وأبي النجا وعبد الرحيم وهذه الطبقة ورآه وانتفع به ثم عاد إلى قرمونة، فلم يزل يخدم الفقراء ويضيفهم ويتواضع لهم وكنت أستحسن منه ذلك، فأشهد لقد رأيته وصل إلى أشبيلة فصاحب الفقهاء وجالسهم وقرأ الفقه وأصوله وعلم الكلام وسكن أشبيلية يعلم بها القرآن وجالس الطلبة المكبين على الدنيا، فأداه صحبة أولئك إلى تجهيل الفقراء الصادقين في أحوالهم ونبذهم. فإياك يا أخي عافاك الله الظن السوء من أن تظن في أني أذم الفقهاء من أجل أنهم فقهاء أو لنقلهم الفقه، لا ينبغي أن يظن هذا بمسلم، وأن شرف الفقه وعلم الشرع لا خفاء به، ولكن أذم من الفقهاء الصنف الذي تكالب على الدنيا وطلب الفقه للرياء والسمعة وابتغى به نظر الناس ليقال، ولازم المراء والجدال، وأخذ يرد على أبناء الآخرة الذين اتقوا الله فعلمهم من لدنه علماً، فأخذت الفقهاء، أعني هذا الصنف منهم في الرد عليهم في علم لا يعلمونه ولا عرفوا أصوله، ولو سئل أحدهم عن شرح لفظة مما اصطلح عليه علماء الآخرة ما عرفها وكفى به خجلاً، ولو نظر في قول الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦] الآية لاعتبر وتاب. وقد ذم النبي ﷺ العلماء الذين طلبوا العلم لغير الله وتصرفوا به في غير مرضاة الله لا لكونهم علموا، كما مدح الصنف الآخر من العلماء بالخشية وغير ذلك، كما أنبي قد ذممت الصوفية في كتابي هذا ولم أرد به الصادقين وإنما أعني الصنف الذي تزيا بزيهم عند الناس وباطنه مع الله بخلاف ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٠٤] الآية فلا أنكر مرتبة الفقه وقد سمعت عن النبي ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**»[1] ولما كان هذا الصنف من الفقهاء غلبت عليهم نفوسهم

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٥٢) في الجهاد باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] وفي العلم باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ومسلم رقم (١٠٣٧) في الإمارة باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه والترمذي رقم (٢٦٤٧) في العلم، باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين .

وشهواتهم واستولى عليهم الشيطان وعلى أيديهم جرى الضرر على أولياء الله وبشهادتهم هلكوا كما سيأتي في آخر الكتاب هذا عن النبي ﷺ، وأما العلماء العاملون المنصفون الراسخون في العلم فهم السادة الذين هداهم الله فهم مصابيح الهدى وأعلام التقى وارثوا رسول الله ﷺ في العلم والعمل والإخلاص والوصف الذي صح لهم به نسب التقوى، فإذا سمعتني أذم الفقهاء في هذا كتاب فإنما أعني به هذا الصنف المدبر الذي اتبع شهوته وغرض نفسه الأمارة بالسوء، وكذلك ذمي للصوفية إنما أذم هذا الصنف الذي ذكرت فإن الحلولية والإباحية وغيرهم من هذا الطريق ظهروا وتظاهروا بالدعاوى واتصفوا فهم قرناء الشيطان وحلفاء الخسران فنسأل الله أن ينور بصائرنا وبصائرهم ويصلح سرائرنا وسرائرهم وأوقفهم على عيوبهم لعلهم يرجعون[1]، وأشهد لقد وصل إلينا هذا السيد عبد الله المروزي الذي رؤي له تلك البركات فخرج إليه أي إلى أبي الحسن المذكور ليزوره في داره وأنا معه وصاحبي عبد الله بدر الحبشي فلما طرق عليه الشيخ الباب قال: من بالباب؟ قال عبد الله المروزي جاء ليزورك فسكت ساعة ثم خرج إليه ابنه وقال له: مشغول هو، ثم قال له ما هو هنا ولم ير مكانته، هذا ما انتهى لي من بغضه في الفقراء، وهذا حصل له من شؤم الفقهاء، حال الله بيننا وبين كل من يقطعنا عن الله وعن أهله وخاصته. وكان إذا لقيني يعاتبني على صحبتهم ويقول لي: مثلك يصحبهم فأقول له مثلي لا يصلح أن يخدمهم فإنهم السادة وإنما كان يحن إلى مشاركتي له في علمه الذي قرأه لا لكوني في طريق القوم ولا لمحبتي فيهم فتركته في ذات الله تعالى وتركت معاشرته وصار اليوم حكمه حكم الفقهاء في الولاية إنها معقولة متوهمة لا يعرف صاحبها، ثم إذا وصف الفقيه أفعال الأولياء أقيدها عليه ثم أريهم تلك الأفعال في شخص فإذا رآه يقول إيه من قال أنه أخلص فيها لو كان مخلصاً ما اطلعت أنت ولا أنا عليه إنما نصب هذا لحيلة ما فلا تراه يحسن الظن بأحد قط، ولم أزل أبداً والحمد لله أجاهد الفقهاء في حق الفقراء السادة حق الجهاد وأذب عنهم وأحمي، وبهذا فتح لي، ومن تعرض لذمهم والأخذ فيهم على التعيين وحمل

---

(١) هذا رأي الشيخ في الحلول والإباحية، حيث اتهمه بعض الناس بهما.

من لم يعاشر على من عاشر فإنه لا خفاء بجهله ولا يفلح أبداً، ولقد تكلم معي بحرم مكة رجل يقال له القاضي عبد الوهاب الأزدي من أهل اسكندرية فقيه قد استحوذ عليه الشيطان بحيث صيره أن يعتقد أن الزمان فارغ من جميع المراتب في كل فن وإنما هي تلفيقات وخرافات فسألته كم من بلد في معمور الأرض للمسلمين فقال: كثير فقلت له: كم دخلت منها فذكر ستة بلاد أو سبعة قلت له كم الخلق فيها قال كثير الذي رأيت أم الذي لم تره قال الذي لم أره، فضحكت وقلت له حد المعتوه الأحمق الذي يرى الكثير ويبقى له القليل فيقيس القليل على الكثير ويحمله عليه في الحكم، وأما المؤمن الناصح نفسه فإنه يقول ولعل في ذلك القليل ولو كان واحداً لم أره لعله ذلك السعيد، كيف ومن يقول ما رأيت إلا القليل لا من البلاد ولا من الناس ثم يعتقد ذلك فلا خفاء بجهله، ثم إنه لا يطلع الله مثل هذا إلا على نقائص العالم لا على فضائله حتى يحكم على الغائب بما يراه فيشقي بذلك عند الله، وأين هو من قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فكثرهم وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] فقللهم ثم إن في المسألة ما هو أعجب من هذا كله، أني سمعته يقول ما يناقض أصله من جهة علمه فقال الناس على قسمين ذكي وغير ذكي، فغير الذكي لا كلام معه لنقصه والذكي لا يسلم من الغلط فما ثم شيء، فانظر نظره إلى باب العيب والنقص لشقاوته وتركه النظر في أحوالهم إلى باب الفضل، هلا قال عند هذا التقسيم فغير الذكي يأتي إلى العالم فيأخذ منه العلم تقليداً لعدم ذكائه وفطنته فيوفق ويرجى أن يعلمه الله والثاني الغالب على الإصابة في عموم أحواله وهذا لا يقنع في الأشياء إلا بالبراهين من نفسه لذكائه فمهما غلط إن استمر في غلطه بعد اجتهاده فمعفو عنه أو قد يرجع عن ذلك، وأما نقض أصله فيها فقول النبي ﷺ في الحاكم «**إِذَا اجْتَهَدَ فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرانِ وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَكُل مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ**»(١)

---

(١) رواه البخاري (١٣/٢٦٨) في الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ومسلم رقم (١٧١٦) في الأقضية: باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، وأبو داوود رقم (٣٥٧٤) في الأقضية: باب في القاضي يخطئ، وأحمد في «المسند» (٢/١٨٧) وابن ماجه رقم (٢٣١٤) في الأحكام: باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فتراه مأجوراً في الحالتين لا وزر عليه البتة، فرأيت هذا الفقيه أجهل الجاهلين والحمد لله رب العالمين.

أبو محمد عبد الله الباغي الشكاز

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله الباغي الشكاز رضي الله عنه من حصن باغة سكن غرناطة وهو بها حتى الآن، اجتمعت به في منزله مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي وكانت عادتي إذا دخلت على من دخلت عليه من شيخ أو فقير أدفع إليه كل درهم يكون عندي لا أمسك شيئاً فلم يكن عندي سوى درهم واحد في ذلك اليوم فدفعته إليه، كان رضي الله عنه من أهل الجد والاجتهاد، الغالب عليه الخوف والبكاء، يكره المعصية كما يكره الكفر ويكره الصغيرة كما يكره الكبيرة، وتحقق في مقام المحافظة يكاد يكون معصوماً كما قال أبو عقال قال: صحبت شيخي هارون فلم أر له كبير عمل، كان ينام الليل كله، فوقع في نفسي من قلة اجتهاده، فهتف بي هاتف ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] قال: فأتيته فقلت: يا سيدنا هل أتيت كبيرة قط؟ قال: ولا صغيرة عن تعمد. كان رضي الله عنه ليله قائم ونهاره صائم، لم يقدر مريد قط على صحبته، لأنه كان يطلبه باجتهاده فيفر منه، عاش وحيداً فريداً ليس عنده ولا له شديد على النفس، يقال له عن رحمة الصحابة بأنفسهم، فيقول: لو لم يكن لهم إلا الصحبة متى نلحق بهم؟ لم أر له شبيهاً إلا أبا مسلم الخولاني التابعي رضي الله عنه، كان قد أخذ في الجد والاجتهاد يقطع القضبان، فإذا كسل عن الوقوف في الصلاة ضرب بالقضيب ساقيه ويقول أنت أحق بالضرب من دابتي، حتى تنكسر القضبان كلها، ثم يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يفوزوا بمحمد ﷺ دوننا، والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أن خلفهم بعدهم رجالاً، كان هذا الشكاز مليح المقابلة حسن المعاشرة كثير التلطف يحن إلى الإشارات، سمعته يقول: انظروا في هذه الأربعة ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

[النور: ٣٧] ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] رضي الله عنهم.

أبو محمد عبد الله القطان

ومنهم رضي الله عنه أبو محمد عبد الله القطان رضي الله عنه المفتوح عليه في القرآن، كان يصدع بالأمر لا تأخذه في الله لومة لائم، يرد كلام السلاطين في وجوههم أقبح الرد، له صولة يرمي من شاء بالحق ولا يبالي عرض نفسه للقتل من كثرة سبه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة له مجالس معهم يضيق الوقت عن ذكرها، لا يتكلم إلا بالقرآن ولا يرى غيره، لم يكتب كتاباً، سمعته يقول بمدينة قرطبة مساكين أصحاب المصنفات والتأليف ما أطول حسابهم غداً أليس في كتاب الله وفي حديث رسول الله ﷺ مقنع، كان يحافظ على صلاته وعلى صاحبه، لم يتنعم قط ولا جمع بين درهمين، وجه السلطان فيه ليقتله فأخذه الأعوان ودخلوا به على الوزير فأقعد بين يديه فقال: يا ظالم يا عدو الله وعدو نفسه فيماذا وجهت؟ فقال: قد أمكن الله منك ما تعيش بعد هذا اليوم أبداً فقال له الشيخ إنك لا تقرب أجلاً ولا تدفع مقدوراً كل ذلك لا يكون أنا الذي والله أشهد جنازتك فقال الوزير لأعوانه اسجنوه حتى أشاور السلطان في قتله، فسجن تلك الليلة فانصرف وهو يقول عجباً لم يزل المؤمن في سجن وإنما هذا بيت من بيوت السجن، فلما كان في اليوم الثاني جلس السلطان وأخبره الوزير بقصة الشيخ وكلامه فأمر به فحضر بين يديه فرأى رجلاً دميم الخلقة لا يؤبه له وما أحد من أهل الدنيا (يرد له خيراً) وهذا كله لقوله الحق وإظهار معايبهم وما هم عليه من الجور والفساد، فقال له السلطان بعدما سأله عن اسمه ونسبه: أتحفظ توحيدك؟ فتلاه عليه من القرآن بتقاسيمه فتعجب السلطان و انبسط له إلى أن دخل معه في المملكة وشأنها، فقال له السلطان: ما تقول في ملكي هذا؟ فضحك، فقال له: مم تضحك فقال: منك تسمي الهذيان الذي أنت فيه ملكاً وتسمي نفسك ملكاً، أنت كمن قال الله تعالى فيه ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] وإنما كان

الملك الذي يصلى اليوم بنارها ويجزي بها وأما أنت فرجل عجنت لك خبزة وقيل لك كلها، ثم أغلظ عليه في القول بكل ما يكرهه ويغيظه، وفي المجلس الوزراء والفقهاء، فسكت السلطان وخجل، وقال: هذا رجل موفق يا عبد الله اجلس مجلسنا، قال: لا فإن مجلسك مغصوب ودارك التي تسكنها أخذتها بغير حق، ولولا أني مجبور ما دخلت هنا، حال الله بيني وبينك وبين أمثالك، فأمر له بأعطية وعافاه في نفسه، فرد له بالأعطية وقبل العفو وخرج، فأمر السلطان أن تدفع إلى أهله، وما مضى زمن قليل إلا والوزير قد مات، وخرج أبو محمد وحضر جنازته، وقال: بررت في قسمي، وكان يصيح ويرفع صوته أمام أرباب الدولة، ويقول: هؤلاء الفجار بغوا في الأرض عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. صاحبت هذا الرجل وكان يحبني كثيراً، استدعيته ليلة ليبيت عندي، فلما أخذ مجلسه جاء والدي رحمه الله تعالى، وكان من أصحاب السلطان، فلما دخل سلم عليه، وكان والدي قد شاب، فلما صلينا العشاء قدمت له الطعام وقعدت آكل، وانضم والدي يغتنم بركته فرد إليه وجهه رضي الله عنه وقال: ياشيبة منحوسة أما آن أن تستحي من الله؟ إلى متى تصحب هؤلاء الظلمة؟ ما أقل حياءك؟ أأمنت من الموت أن يأتيك وأنت على شر حالة؟ أما لك في ابنك هذا، وأشار إلي، موعظة شاب صغير في شهوته قمع هواه وطرد شيطانه وعدل إلى الله تعالى يصاحب أهل الله، وأنت شيخ سوء على شفا حفرة من النار، فبكى والدي واعترف وأنا في ذلك كله أتعجب (وأخبار) كثيرة وشأنه عجيب، جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي بقرطبة، ومشينا معه إلى منزله رضي الله عنه، سمعته يوماً يقول: عجبت لمن يطلب ما يركب وهو لم يشرع في شكر، ما أكل وما لبس، كان لا يزيد على الحاجه شيئاً في مأكله وملبسه، كان قاصماً للجبارين، ما تفوته غزوة قط في الروم راجلاً بغير زاد.

أبو جعدون الحناوي

ومنهم رضي الله عنهم أبو جعدون الحناوي رضي الله عنه، مات بفاس سنه

سبع وتسعين وخمسمائة، جمعت بينه وبين صاحبي عبد الله بدر الحبشي، كان رضي الله عنه واحداً من الأربعة الأوتاد الذين يمسك الله العالم بهم، سأل الله تعالى أن: بسقط حرمته من قلوب العالم، فكان إذا غاب لم يفتقد، وإذا حضر لم يستشر، وإذا جاء لا يوسع له، وإذا تكلم بين قوم ضرب وسخف، كان سبب اجتماعي به ما أذكره الآن: وذلك أتي لما وصلت مدينه فاس، فكان ذكري قد بلغ من بها فأحب من بلغه ذلك الاجتماع بي، فكنت أفر من الدار إلى الجامع، فلا أوجد في الدار فأطلب في الجامع وأنا أراهم فيأتوني فيسألون عني فأقول لهم: أطلبوه حتى تجدوه، فبينما أنا قاعد وعلي ثياب رفيعة جداً، وإذا بهذا الشيخ قد قعد بين يدي ولم أكن أعرفه قبل ذلك، فقال لي: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فرددت عليه، ففتح كتاب «المعرفة» للمحاسبي، فقرأ منه كلمات، ثم قال لي: اشرح وبيِّن ما قال، فخوطبت بأحواله ومن هو ومقامه وأنه من الأوتاد الأربعة رضي الله عنهم وأن ابنه يرث مقامه، فقلت له: عرفتك فأنت فلان، فأغلق كتابه وقام واقفاً وقال: الستر الستر إني أحبك فأحببت أن أتعرف إليك، فقد صح المقصود، ثم أنصرف فلم أكن أجالسه قط إلا إذا لم يكن معنا أحد. وكان معقود اللسان لا يتكلم إلا عن مشقة فإذا تلا القرآن كان من أحسن الناس صوتاً وأبدعهم مساقاً، كان كثير الأجتهاد، وكان ينخل الحناء بالأجرة، قلما تراه إلا مكحول العينين أشعث أغبر، وإنما كان يكحل عينيه من أجل غبار الحناء.

أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندي

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد بن أشرف الرندي رضي الله عنه من الأبدال يسيح الجبال والسواحل، وانقطع بها لا يأوي إلى معمور قريباً من ثلاثين سنة، كان قوي الفراسة كثير البكاء طويل القيام دائم الصمت، كثيراً ما ينكت بأصبعه في الأرض مطرقاً متفكراً يرفع رأسه فيتنفس الصعداء، لصدره أزيز، شديد الوجد غزير الدمعة، صاحبته وعاشرته زماناً، كان إذا وقعت عينه علي فرح بي واستبشر، خرج عن مال كثير وافر كان من أعين من في موضعه، خرجت وقتاً من

مدينة شدومة أريد الساحل في طلب الرجال فتبعني شاب لانبات بعارضيه يريد صحبتي، فأخذته معي، فقام أمامي شخصان الواحد أسمر طويل يقال له عبد السلام السائح يجول في الأرض لا يقر له قرار، ومعه آخر يقال له محمد بن الحاج من بني جواد وكانا يمشيان مشياً سريعاً فلحقتهما، وكان بيني وبينهما خمسة أميال فمررت عليهما مستعجلاً وكان يوم جمعة، فأويت إلى قرية يقال لها روطة من أجل صلاة الجمعة، فدخلت مسجد الجماعة فركعت ركعتين وهو موضع يطرقه الصالحون، رباط حسن له بركات مشهورة فاتفق لي بها قصة، فلم ألبث أن جاء هذا أبو عبد الله بن أشرف، فلما دخل قام إليه ذلك السائح وصاحبه فسلما عليه وعرفاه، وأنا مضطجع في الجامع، أضرب بيدي على صدري وأغني شعراً:

ضَاحِكٌ عَنْ جُمَانْ سَافِرٌ عَنْ بَدِرِ

ضَاقَ عَنْهُ الزَمَانْ وَحَواهُ صَدْرِي

فجاء إلي وأقامني وقال أتريد أن تستر نفسك؟ فقلت له: وكذلك تفعل أنت، فكان كما قلت فأقبل إلي شيخ القرية ورغب أن أفطر عنده أنا ومن شئت، فقال لي ابن أشرف لا تأكل من هذا الطعام شيئاً و احمل جميع الفقراء فإذا أكلوا تأتي وتفطر معي، فكان ذلك، وأخبرني بأمور كثيرة ووعدني أن ألقاه بأشبيلية، فأقمت معه ثلاثة أيام وانصرفت، فأخبرني بكل ما يتفق لي بعد مفارقته حرفاً حرفاً فكان ذلك كذلك، فلما وصلت إلى إشبيلية أقام الله بخاطري الرحلة إليه لأراه وأنتفع به، وكان ذلك يوم الثلاثاء، فشاورت الوالدة في السفر، فأذنت لي، فلما كان في غد قرع إنسان علي الباب فخرجت فوجدت إنساناً من البادية، فقال أنت محمد بن العربي، فقلت له: نعم، قال: كنت أمشي بين ملجانة ومرشانة بالأمس أثني عشر فرسخاً من إشبيلية، فلقيني رجل له هيبة وهمهمة فقال: أنت تسير إلى أشبيلية قلت: نعم قال سل عن دار محمد بن العربي واجتمع معه وقل له: صاحبك الرندي يقرئك السلام، وهذا كان طريقه إليك، ولكن خطر لك الساعة أن تسير إلى تونس، فسر

مسلماً عافاك الله، واجتماعنا إن شاء الله تعالى إذا وصلت أشبيلية، فكان كما قال، فرحلت أنا في اليوم الثاني لزيارته وغبت عن موضعي ويوم وصولي أو ثانية اجتمع بي وبت معه في دار أبي عبد الله القسطيلي، وكان سبب شهرته رضي الله عنه أنه كان كثيراً ما يقعد في جبل شامخ على غير ممر فمشى بعض الناس فيه لحاجته فرأى عموداً من نور قائماً يتشعشع ولا يستطيع النظر إليه فقصده، فوجد ذلك النور صاحبنا أبا عبد الله وهو قائم يصلي فأشهره، وكان يحترف بجمع البابينا من الجبال ويأتي بها إلى المصر يبيعها وينصرف، له غرائب وعجائب عاينتها، لقيه القطاع وهو على عين قاعد فقالوا له: الق ما عليك من الثياب أو تموت، فبكى وقال: والله لا أحسنت عونكم على معصية إن أمرتم بشيء فافعلوه، ثم أخذته غيرة في دين الله، فنظر إليهم نظرته المشهورة ففروا، سألني يوماً بالساحل عن قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٧] فلم أجبه وتركته واجتمعت به بعد ذلك بأربع سنين، فقلت له: يا أبا عبد الله، قال: نعم، قلت: خذ جوابك، قال: هات بعد أربع سنين وصل الوقت، فأجبته فيها، وتعجبت من حضوره فيها، وكنت أتمنى أبداً أن يراه صاحبي عبد الله بدر الحبشي، فلما دخلت الأندلس معه نزلنا برندة، فصلينا على جنازة، فإذا بأبي عبد الله أمامي، فقلت لصاحبي عبد الله: هذا فلان، فسر بعضنا ببعض، ودخلت به الموضع الذي نزلت به، فقال صاحبي عبدالله: وددت أن أرى من كراماته شيئاً، فلما جاء المغرب وصلينا، أبطأ الذي نزلنا عنده بالمصباح، فقال صاحبي عبد الله الحبشي: أريد المصباح، فقال أبو عبد الله: نعم، ثم أخذ بيده قبضة من حشيش من البيت الذي كنا فيه ونحن ننظر ما يصنع فضربها بإصبعه المسبحة وقال: هذه نار فاشتعل الحشيش ناراً، فأشعلنا المصباح وكان يغترف النار بيده من الكانون لحاجة ما فيمسكه ما شاء الله ولا تعدو عليه، وكان من الأميين سألته عن بكائه يوماً فقال: آليت أن لا أدعو على أحد فأغاظني رجل فدعوت عليه فهلك، فندمت على ذلك إلى الآن، فكان رضي الله عنه رحمة للعالم، وأخباره كثيرة يضيق وقتنا عن شرحها رحمة الله عليه.

موسى أبو عمران السدراني

ومنهم رضي الله عنهم موسى أبو عمران السدراني رضي الله عنه كان من الأبدال وكان مجهولاً له عجائب وغرائب، كان سبب اجتماعي به أني قعدت بعد صلاة المغرب بمنزلي بإشبيلية في حياة الشيخ أبي مدين، وتمنيت أن لو اجتمعت به والشيخ في ذلك الزمن ببجاية مسيرة خمسة وأربعين يوماً، فلما صليت المغرب تنفلت بركعتين خفيفتين، فلما سلمت دخل علي هذا أبو عمران فسلم فأجلسته إلى جانبي وقلت: من أين؟ فقال من عند الشيخ أبي مدين من بجاية، قلت: متى عهدك به؟ قال: صليت معه هذا المغرب، فرد وجهه إلي وقال: إن محمد بن العربي بإشبيلية خطر له كذا وكذا فسر إليه الساعة وأخبره عني بكذا وكذا، وذكر ما خطر لي من رغبتي في لقاء الشيخ، وقال لي: يقول لك: أما الاجتماع بالأرواح فقد صح بيني وبينك وثبت، وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك، فسكن خاطرك والموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته، وذكر كلاماً خلاف هذا ورجع إليه، كان هذا موسى رضي الله عنه من أهل السعة في الدنيا فخرج عنها، ففتح الله عليه في ثمانية عشر يوماً التحق بالأبدال، كان يتبوأ من الأرض حيث يشاء، وجيء به إلى السلطان فأمر بتقييده فقيد بالحديد وسير به إليه فلما قرب من فاس ألقي في بعض المنازل في بيت وأقفل عليه وبات عليه الحرس فلما أصبح الصبح فتح الباب فوجدوا الحديد الذي كان عليه مطروحاً وما وجدوا أحداً، دخل فاس وقصد دار أبي مدين شعيب فقرع عليه الباب فخرج الشيخ نفسه وقال له: من أنت؟ قال أنا موسى، قال له الشيخ: وأنا شعيب ادخل لا تخف نجوت من القوم الظالمين، أخبرني شيخي أبو يعقوب الكومي عنه أنه وصل جبل قاف المحيط بالأرض فصلى الضحى بأسفله وصلى العصر على ذروته، سئل عن ارتفاعه في الهواء فقال: مسيرة ثلاثمائة سنة، وأخبر أن الله طوق هذا الجبل بحية اجتمع رأسها بذنبها فقال له صاحبه الذي كان معه: سلم على هذه الحية ترد عليك السلام قال موسى فسلمت عليها فقالت: وعليك السلام يا أبا عمران كيف حال الشيخ أبي مدين؟ فقلت لها: وأني لك بمعرفة أبي مدين؟ فقالت: عجباً وهل على وجه

الأرض من يجهل حاله إن الله تعالى قد أنزل حبه إلى الأرض ونادي به، فعرفته أنا وغيري فلا شيء من رطب ولا يابس إلا ويعرفه ويحبه، دخل موسى هذا أرضاً رأى النمل فيها على قدر المعز، عجيبة الخلق ،ولقي عجوزاً خراسانية واقفة على البحر والأمواج تصطفق بين ساقيها، وهي تسبح الله وتقدسه شأنه عجيب وحديثه طويل رحمه الله تعالى.

أبو محمد مخلوف القبابلي

ومنهم رضي الله عنهم: أبو محمد مخلوف القبابلي رحمه الله تعالى، سكن قرطبة حتى مات عن إذن رسول الله ﷺ، حملت إليه والدي رحمه الله تعالى فدعا له وأمسكنا عنده من غدوة حتى صلينا العصر وأكلنا من طعامه، كنت إذا دخلت بيته أخذك الحال قبل أن تراه، فإذا رأيته رأيت منظراً عظيماً، عليه ثوب صوف، كان ذاكراً على الدوام خلاف أوراده، كان له كل يوم خلاف ذكره كذا وكذا ألف تسبيحة، وكذلك التكبير والتحميد والتهليل، كان يعم بدعائه أهل السموات الأرض حتى الحيتان في البحر، كان سريع العبرة، دائم العبرة، أراد أن يحفر بئراً في داره فسيق إليه علج مأسور ليحفره، فقال رضي الله عنه: هذا العلج قد خدمنا فسأل الله في إسلامه فخلا بنفسه ليلته يسأل الله فيه، فلما أصبح أقبل العلج لشغله، وهو قد أسلم فسئل عن سبب ذلك، فقال: رأيت النبيﷺ وأمرني أن أؤمن به فآمنت وقال بشفاعة أبي محمد مخلوف فيك قبلتك، أو كلام هذا معناه. تركته في عافية وانصرفت إلى منزلي، فلما جاء الليل وأخذت مضجعي رأيت في المنام كأني بأرض واسعة، وسحاب يدنو فيها صهيل الخيل وقعقعة اللجم، وأرى أشخاصاً ركباناً وعلى أقدامهم ينزلون في ذلك الفضاء حتى أمتلأ بهم الفضاء، ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أنقى ثياباً ولا أحسن من خيلهم وكنت أرى فيهم رجلاً طويلاً في الرجال، عظيم اللحية أشيب، يده على خده، واسع الوجه، فكنت أخاطبه من بين الجماعة كلها أقول له: أخبرني ما هذا الجم الغفير؟ فيقول لي: هؤلاء جميع النبيين من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ما بقي أحد منهم إلا

نـزل، فقلت من أنت فيهم فقال: أنا هود صاحب عاد فكنت أقول له: فيم جئتم؟ فيقول: جئنا عواداً زائرين أبا محمد، فاستيقظت فسألت عن أبي محمد مخلوف، فوجدته قد مرض من تلك الليلة، فلبث أياماً ومات رحمه الله تعالى.

صالح الخراز

ومنهم رضي الله عنهم صالح الخراز رضي الله عنه كان بأشبيلية من أهل الجد والاجتهاد والورع في العبادة أقبل على العبادة وهو ابن سبع سنين أو دونها، كان مبهوتاً أبداً، ما لعب قط مع الغلمان ولا كلمهم يعمل الخرز من أجل ورعه حتى يأكل من عمل يده، كان له والدة وكان باراً بها، نسخ بيده مع صغر سنه كتاب ابن العسال الكبير، ولازم العزلة، كان طويل الصمت، يقول لأصحابه الذين كانوا معه ما كلمنا قط إلا فيما لا بد منه، عاشرته وأحببته وأحبني، كان إذا قال قولاً لا يرجع عنه لأنه لا يقول إلا عن صدق، لا يقضي حاجة أبداً ولا يعمل شغلاً قط لمن يعرف منه أنه يراه بعين التعظيم، أكثر شغله إنما كان مع الغرباء الذين يطرقون المدينة لا يعرفونه ولا يعرفهم، قصد إليه بعض أصحابنا بنعله وقد قطعه عمداً ليجد سبيلاً إلى مكالمته، فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال له: هذا نعلي اخرزه، فقال له: إن هذا النعل بيدي أصلح شأنه لصاحبه، وقد دفع إلي أجره وأنا واقف بحيث لا يراني، فقال له: أمسكه عندك حتى تفرغ من هذا النعل وتصلحه، فقال: ولعلي أموت قبل ذلك، ترى غيري دون شغل ادفعه له، فقال: ما أريد أن يصلحه أحد إلا أنت، قال قلت لك ما سمعت، واشتغل بذكره. قال له تراني أقعد هنا ونعلي عندي حتى تتمه وتصلحه، قال ذلك لك إن شئت ولكن حتى أعرفك بأجري عليه، قال له: قل قال أجري عليه ثمن درهم، قال له الرجل: أنا أدفع لك ربع درهم، قال: ما يساوي، قال له الرجل: ذلك مني مسامحة، قال: غيري أحوج إليه مني إن كنت تعطي لله فإني قد أخذت قوت اليوم، قال: لا بد من ذلك، قال له: قد صدعتني يا إنسان سر عني لا أعمل لك شغلاً، وأقبل على ذكره وشغله. فرجع الرجل إلي

منكسر القلب، فقلت له: لقد طولت عليه ارجع إليه مرة أخرى وقل له: أخرزه لي ابتغاء ثواب الله لا أدفع لك عليه شيئاً، فرجع إليه فقال له ذلك فنظر إليه ساعة وقال له: أنت مرسول ثم التفت وأبصرني، فقال له: اترك نعلك وانصرف عني فإذا كان العصر فاتني فإن وجدتني حياً دفعته لك وإن وجدتني ميتاً فتراني أوصي لك به هذا الجار. ثم التفت وأشار إلي فأقبلت إليه فقال: هكذا تفعل الأصحاب يقابلون إخوانهم بما يسوؤهم لا تعد لمثلها، ولولا ما جعل الله لك في قلبي من الألفة ما رأيتك، ولكن استر علي، فلم أعرف بعد ذلك أحداً بحاله رضي الله عنه، انتقل إلى سكن البادية يبتغي الانفراد والعزلة.

عبد الله الخياط

ومنهم رضي الله عنهم عبد الله الخياط رضي الله عنه اجتمعت به بجامع العديس وهو ابن عشر سنين أو أحد عشر سنة وهو ذو طمرين منتقع اللون كثير الفكر شديد الوجد والتوله كنت قد فتح لي في هذا الطريق وما علم بي أحد فأردت الموازنة معه فنظرت إليه فتبسم ونظر إلي وأشرت إليه وأشار إلي، فوالله ما رأيت نفسي بين يديه إلا كدرهم زائف، وقال لي الجد الجد فطوبى لمن عرف ما خلق له، وصلى معي العصر وأخذ نعله وسلم علي وانصرف فذهبت أشيعه أعرف منزله فلم أجد له أثراً فسألت عنه فلم أجد أحداً يخبرني عنه فما بقيت في راحة دونه ولم أره بعد ذلك ولا سمعت به إلى الآن فمنهم صغير ومنهم كبير، رضي الله عنهم.

أبو العباس أحمد بن همام

ومنهم رضي الله عنهم أبو العباس أحمد بن همام رضي الله عنه من أهل اشبيلية ألهمه الله رشد نفسه وأقبل على العبادة قبل أن يبلغ الحلم وكان ذا جد يبكي أبداً على نفسه كأنه الثكلى على وحيدها، كان له والد يحول بينه وبين طريق الله فلما اشتد ذلك عليه قال لي: يا أخي اشتد علي الأمر وقد طردني أبي وقال لي: سر حيث شئت وأنا أريد الخروج إلى ثغور المسلمين لجهاد العدو وأرابط بموضع منها

حتى أموت فمشى إلى ثغر منها يقال له جلمانية ولم يزل بها حتى الآن، وصل إلى اشبيلة بعد ذلك، أخذ أسباباً يحتاج إليها ورجع يرابط بها، كان أبداً ملازماً في دار عبد الله الخياط الذي تقدم ذكره.

أبو أحمد السلاوي

ومنهم رضي الله عنهم أبو أحمد السلاوي رضي الله عنه وصل إلينا إلى إشبيلية وأنا في تربية شيخنا أبي يعقوب، كان هذا أبو أحمد رحمه الله قوي الحال صحب أبا مدين ثماني عشرة سنة، كان كثير الاجتهاد والعبادة شديد البكاء بت معه شهراً كاملاً بمسجد ابن جراد فقمت ليلة أريد أن أصلي فتوضأت وجئت إلى مسقف[١] المسجد فرأيته نائماً عند باب المسقف، والأنوار متصلة منه إلى السماء، وبقيت واقفاً انظر فلا أدري أمن السماء نـزلت عليه تلك الأنوارحتى اتصلت به أو منه انبعثت حتى اتصلت بالسماء، فلم أزل واقفاً عليه أتعجب من حاله حتى استيقظ وتوضأ وقام يصلي، كان إذا بكى آخذ الدموع إذا سقطت من عينه على الأرض فأمسح بها وجهي فأجد فيها رائحة المسك فاتخذها طيباً يشمها الناس علي، فيقولون: هذا المسك من أين اشتريته؟.

أبو إسحق إبراهيم العبسي

ومنهم رضي الله عنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن طريف العبسي شيخ أبي عبد الله القرشي رضي الله عنهما، كان بديار مصر وكان سمح الخلق لين الجانب قائلاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم من أهل الجد والاجتهاد، كان يحن إلى العزلة ولا يقدر عليها من أجل الحرفة، كان يبيع الفخار، قيد كثيراً من كتب الطريق، كانت المعاملة غالبة عليه، يحب المعارف ويحن إليها، كان سبب موته من رجلاً مر به فقال له: يا سيدي مر عليك فلان يسأله عن إنسان من أهل البلد وكان ذلك قد ابتلاه الله في عنقه بداء نسميه عندنا نفنفة فلم يعرفه الشيخ جيداً فألح

---

(١) مسقف المسجد: المشرف عليه (المعجم الوسيط)

عليه الرجل في السؤال فقال له أراك والله تسأل عن ذلك الرجل صاحب النفنفة في عنقه قال له: عنه أسأل، قال الشيخ: فناداني الحق في سري يا إبراهيم ما تعرف عبادنا إلا بما نبتليهم به ما كان له اسم تذكره به، لأميتنك بها، فأصبح وقد خرجت في عنقه فقاساها يسيراً ثم مات رحمه الله تعالى. أخبرني بهذه الحكاية ابنه محمد بالحرم، وقال لي: قال لي أبي: ما غلطت في مثل هذا النوع منذ عشرين سنة، قصدته في بلده مرتين وكان يحبني واجتمعت به مع صاحبي عبد الله بدر الحبشي في سبتة وفي بلده رضي الله عنه ونفع به.

أبو محمد عبدالله بن إبراهيم المالقي

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم المالقي عرف بالقلفاط صاحب أبا الربيع الكفيف وغيره، كان صديقاً لإبراهيم بن طريف، كان هذا عبد الله بعمل على طريق الفتان ولعمري لقد ظهر فيه وبدت عليه أعلامه، ما تراه يمشي قط إلا في حق غيره، لا يلتفت لنفسه ولا لحقها، يقصد إلى البلد والحكام في حوائج الناس، داره للفقراء مباحة، حافظ للشريعة والآداب، مشروح الصدر أكثر من إبراهيم بن طريف، كان ابن طريف عنده جمود اجتمعت به مراراً عديدة وكان يميل إلى جانبي كثيراً، اتفق لي يوماً بمدينة سبتة وهو مع ابن طريف أن وجه إلى السلطان أبو العلاء مائدتين ولم أكن حاضراً فأخذهما الفقراء الذين كانوا وصلوا إلى الموضع من أجلي وأكلوا وانقبض خواص أصحابي عنها فلما كان في الليلة الثانية وجه إلينا كذلك مائدتين فلم أقبل ولم أرد وكانوا قد أتوا إلينا فقراء بالقصد لما سمعوا أن السلطان يبعث إلينا، فأقمت صلاة العشاء فصليت فقال بعض الفقراء ممن يدعي التشيخ لا صلاة بحضرة طعام فسكت عنه فغضب حيث لم أجبه، فقلت: أنا لم أقبل ذلك الطعام ولا أرى أن آكله فإنه عندي حرام ولا يمكن لي أن آمركم بأكله فإني أحب لكم ما أحب لنفسي، ثم بينت وجه الحرام فيه ثم قلت هذا طعام حاضر من استحله أكله ومن لم بستحله تركه ودخلت إلى البيت الذي كنت فيه وأدخلت معي خواص أصحابي، فلما أصبح مشى ذلك ووشى عند الوزير بأني

أقول فيهم أنهم أهل حرام وغير ذلك فاغتاظ الوزير وقال إن السيد والله هو الذي يتناول توجيه ذلك الطعام بنفسه ولا يبرح حتى يحمل أمامه، وقام لذلك وقعد فوصلت المسألة إلى السلطان وكان عاقلاً فقال نحن ما قصدنا إلا الخير وهو أعرف بحاله لا ندخل عليه مضرة ولا ما يسوؤه وقبض ذلك عني فبلغ ذلك صاحبنا القلفاط فاجتمع بي وقد خاف علي وعلى أصحابي مما يعرف من البلاء وعاتبني على ذلك وقال: يا فلان هذا في نفسك حسن غير أن المضرة تنسحب فيه على الطائفة وهؤلاء القوم ما يحتملون مثل هذا وقد قال بعضهم ذل من ليس له ظالم يعضده وضل من ليس له عالم يرشده، فلما رأيت أن الرحمة غلبت عليه في حق الناس وتسديد الأمور وآخذ الأرجح في المصلحة الدنيوية قلت له: بئس العبد لله من يستند إلى عدو الله لا رعى الله العالم إذا لم يراعوا حق الله، حق الله أحق ونفضت يدي، وقمت فانصرف، فلقيت ابن طريف والخبر عنده فقال لي السياسة أولى، فقلت له: ما دام رأس المال محفوظاً فلا بأس، فسكت رضي الله عنه، ولولا التطويل لذكرناهم عن آخرهم ولكن اقتصرت على هذا المقدار رغبة في الإيجاز والاختصار.

عبدالله بن تاحمست والسخان

وقد أفردت لذكرهم كتاباً سميته الدرة الفاخرة في ذكر من انتفعت به في طريق الآخرة، ذكرت فيه مثل عبد الله بن تاحمست (يعده أهل إشبيلية من الأبدال) وآخر يقال له السخان كان من الأبدال فزل، وبقي حزيناً لا يكلم أحداً كنت إذا لقيته رحمته لما أره فيه من الكرب الشديد.

أبو يحيى بن أبي بكر الصنهاجي

ومنهم رضي الله عنهم الشيخ العارف السائح المتجرد المنقطع الصادق الصالح المسن أبو يحيى بن أبي بكر الصنهاجي من أهل المعارف والإشارات والتمكين قل

أن تلقى مثله، بيني وبينه مسائل من الحقائق كثيرة يضيق الوقت عن ذكرها، ألفت من أجله كتاب «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب».

أبو العباس بن تاجه

ومنهم رضي الله عنهم أبو العباس بن تاجه من المجتهدين لم يزل المصحف بين عينيه حتى مات رحمه الله.

أبو عبد الله بن بسطام الباغي

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله بن بسطام الباغي من أهل باغه كان من أهل القرآن والليل.

يوسف بن يعزي

ومنهم رضي الله عنهم يوسف بن يعزي بقرمونة من التالين لكتاب الله لا يتركه القرآن أن يتحدث مع أحد، صواماً قواماً.

أبو الحسن القنوتي

ومنهم رضي الله عنهم أبو الحسن القنوتي بمدينة رندة من أهل الفتوة والمعارف السنية.

الحداد

ومنهم رضي الله عنهم الخداد بمدينة اشبيلية كان مشتهراً بالصلاة على النبي ﷺ دائماً لا يفتر.

ابو إسحاق القرطبي

ومنهم رضي الله عنهم أبو إسحق القرطبي ببجاية من أصحاب أبي مدين، كان من الموحدين.

أبو عبد الله المهدوي

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله المهدوي بمدينة فاس، بقي نيفاً وستين سنة ما استدبر القبلة حتى مات.

علي بن موسى بن البقران

ومنهم رضي الله عنهم علي بن موسى بن البقران بمدينة فاس، كان لا يعرف الطريقة، كان غامضاً للناس فيها وكان لديه معرفة تامة، كانت له فيها فراسة، كان عند الناس مشهوراً بالقراآت والروايات رحمه الله تعالى.

أبو الحسين يحيى بن الصائغ

ومنهم رضي الله عنهم أبو الحسين يحيى بن الصائغ بسبتة من المحدثين وهو صوفي، وهذا من الأعجوبات محدث صوفي، كبريت أحمر له بركات كثيرة عاشرته كثيراً ورويت عنه وقرأت عليه، كان زاهداً متجرداً.

ابن العاص أبو عبد الله الباجي

ومنهم رضي الله عنهم ابن العاص أبو عبد الله الباجي بإشبيلية رحمه الله، كان فقيها زاهداً، وهذا أيضاً غريب فقيه زاهد لا يوجد.

أبو عبد الله بن زين اليابري

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله بن زين اليابري باشبيلية، كان من أفضل الناس، كثير الجد والاجتهاد والتقشف، كان يقرأ القرآن والنحو بجامع العديس بإشبيلية، لا يؤبه له، غامضاً في الناس، اعتكف على كتب أبي حامد، قرأ ليلة تأليف أبي القاسم بن أحمد في الرد على أبي حامد فعمي فسجد لله من حينه وتضرع وأقسم أنه لا يقرأه أبداً ويذهبه فرد الله عليه بصره، وكان من فضلاء الناس، لقيت أيضاً أخاه مثله، نودي به عند موته جنتين اثنتين لبني زين.

أبو عبد الله الفران

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله الفران إمام أهل البلاد، بقرطبة قل أن يلقى مثله، سألته كيف يطيب عيشه معهم فقال: لا أشم منهم إلا رائحة مسك، أحفظ من أحواله عجائب.

أبو زكريا يحيى بن حسن الحسني

ومنهم رضي الله عنهم أبو زكريا يحيى بن حسن الحسني بمدينة بجاية من العلماء العاملين السادة، صاحب زهد وورع ونصيحة، خلوت به يوماً عن اذنه، فسألته وسألني، فرأيت رجلاً الغالب عليه الخوف، له أخبار عجيبة في تَقشفه وأكله، لقيته مراراً وقرأت عليه بعض تآليفه.

عبد السلام الأسود السائح

ومنهم رضي الله عنهم عبد السلام الأسود السائح، لا أدخل قرية إلا قيل من هنا مر فلان، لا يقر له قرار، سألته عن عدم قراره فقال أجد حالة طيبة في الحركة.

أبو عبد الله القسطيلي

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله القسطيلي بمدينة إشبيلية من أهل الجد والاجتهاد والغيرة في دين الله تعالى، إذا دخلت عليه في موضعه تنشط للعبادة.

أبو العباس أحمد بن منذر

ومنهم رضي الله عنهم أبو العباس أحمد بن منذر بمدينة أشبيلية من أهل القرآن والعربية والفقه، وحيداً في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، من كراماته إذا اعتاصت عليه مسألة في المذهب يرى مالكاً يحلها له، يتعرض إليه في داره الروحانيون والرجال يسلمون عليه، يضيق عليه الحال فتلقى الدراهم بين يديه فيأبى أن يأخذها ويردها فترفع عنه، غلب عليه الورع، كان مباركاً صالحاً.

موسى أبي عبد الله المعلم

ومنهم رضي الله عنهم موسى أبي عبد الله المعلم بمدينة فاس وهو من قلعة بني سعيد من نظراء غرناطة وابنه عبد الله نشأ صالحاً لا يعرف المعصية، وهو الشاب التائب لا يعرف له صبوة حافظ لكتاب الله.

أبو العباس الخراز

ومنهم رضي الله عنهم أبو العباس الخراز لقيته بمكة صحب عبد الله المغاوري وانتفعت بدعائه، ورأيت له بركة رحمه الله تعالى.

أبو محمد عبد الله البرجاني

ومنهم رضي الله عنهم الحاج أبو محمد عبد الله البرجاني صاحبك وصديقك رضي الله عنه يحب السنة وأهلها، كان صالحاً جليل القدر كثير السكون، سمعته، يوماً يقول في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، لم يتلوه هؤلاء حق تلاوته فقلت له يا أبا محمد السؤال منك والجواب منك، فتبسم وقال: لأنه آتاهم فسبقت لهم العناية فلما أعطوا أعينوا، وهذه إشارة بديعة تحتها بحور تزخر لمن نظر وتفكر، يقول النبي ﷺ في الإمارة «**إِنْ أُعْطِيتَها أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ طَلَبْتَها لَمْ تُعَنْ عَلَيْها**»[1].

أبو عبد الله محمد البابلي الساكن

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله محمد البابلي الساكن بدار القير، خديمك

(١) البخاري (١٣/ ١١٠) في الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، وباب من سأل الإمارة ومسلم رقم (١٦٢٥) في الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة، وأبو داوود رقم (٢٩٢٩) في الخراج والإمارة، باب ما يلزم الإمام من حق الرعية، والترمذي رقم (١٥٢٩) في النذور، باب فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، والنسائي (٨/ ٢٢٥) في آداب القضاة، باب النهي عن مسألة الإمارة وأخرجه أيضاً أحمد في «المسند» (٥/ ٦٢ و ٦٣).

الذي فتح الله له على يديك، بركاتك عليه كانت ظاهرة، رأيت له أموراً عجيبة كنت أسر بها، لا يتسع الوقت لذكرها.

أبو عبد الله المرابط

ومنهم رضي الله عنهم أبو عبد الله المرابط من أهل القرآن والليل ظهرت عليه أنواره، جيد الذهن سريع الفهم.

أبو وكيل ميمون بن التونسي

ومنهم رضي الله عنهم أبو وكيل ميمون بن التونسي كان يجمع القرمز يعيش به مرض عندنا بإشبيلية فأخذته الصالحة زينب امرأة من أطاع الله لتمرضه في دارها بنفسها فلما انتقل عندها مات من ليلته، كان من رجال الله.

أبو محمد عبد الله بن خميس الكتاني

ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن خميس الكتاني جرايحي بمدينة تونس، لقيته وزرته حافياً على قدمي في شدة الحر تأسياً بشيخي أبي يعقوب وأبي محمد، قالا لي: أنهما زاراه على هذه الحالة له بركات وحسبي علمك بحاله.

ولقيت بمكة الأشخاص السبعة نفع الله المسلمين بهم جالستهم بين حطيم الحنابلة وصفة زمزم، وهم خاصة الله حقاً لا يطوفون، عليهم السكينة والهيبة، لقيتهم وهم في حال المشاهدة فلم يقع بيني وبينهم مكالمة في معرفة ولقد رأيت من سكونهم مالا يتصور أن يسكنه أحد.

شمس أم الفقراء

ومنهم رضي الله عنهم شمس أم الفقراء بمرشانة الزيتون اختلفت إليها مراراً، ما لقيت في الرجال مثلها في الحمل على نفسها، كبيرة الشأن في المعاملات والمكاشفات، قوية القلب، لها همة شريفة، لها التمييز، تستر حالها جداً كانت تبدي منه في السر أشياء إلي لما حصل عندها مني من المكاشفة وكنت أفرح لها

بذلك، لها بركات كثيرة ظاهرة، اختبرتها مراراً في باب الكشف فوجدتها متمكنة، الغالب عليها الخوف و الرضى، وتحصيل هذين المقامين في وقت واحد عندنا عجيب يكاد لا يتصور.

فاطمة بنت أبي المثنى

وكذلك لقيت فاطمة بنت أبي المثنى باشبيلية أدركتها في عشر التسعين قد أسنت لا تأكل إلا ما يطرح الناس على أبوابهم من الأطعمة، قليلة الأكل جداً كنت إذا قعدت معها أستحي أن أنظر إلى وجهها من عظيم تورد وجنتيها ونعمتها وهي في عشر التسعين سنة، كانت سورتها من القرآن الفاتحة قالت لي: أصرفها في كل أمر شئته، بنيت لها بيتاً من قصب تسكنه، كانت تقول لا يعجبني أحد ممن يدخل علي غير فلان تعني إياي فيقال لها بم ذاك فتقول ما منكم أحد يدخل علي إلا ببعضه ويترك بعضه في أغراضه من داره وأهله إلا محمد بن العربي ولدي وقرة عيني فإذا دخل علي دخل بكله وإذا قام قام بكله وإذا قعد قعد بكله لا يترك خلفه من نفسه شيئاً وهكذا ينبغي أن يكون الطريق، عرض الله عليها ملكه فلم تقف مع شيء منه، إنما تقول أنت كل شيء دونك مشؤوم علي، كانت والهة في الله تعالى، من رآها يقول عنها حمقاء فتقول: الأحمق من لا يعرف ربه، كانت رحمة للعالمين، ضربها أبو عامر المؤذن بالدرة في الجامع ليلة العيد فنظرت إليه وانصرفت متغيرة النفس عليه، فبات تلك الليلة فلما كان السحر سمعت المؤذن يؤذن فقالت رب لا تؤاخذني تغيرت نفسي على رجل يذكرك في دياجي الليل والناس نيام، هذا ذكر حبيبي يجري على لسانه اللهم لا تؤاخذه بتغيري عليه، فلما أصبح دخل فقهاء البلد بعد صلاة العيد على السلطان ليسلموا عليه فدخل ذلك المؤذن في جملتهم رغبة في الدنيا فقال السلطان: من يكون هذا قيل مؤذن الجامع فقال: ومن أمره بالدخول مع الفقهاء أخرجوه فصفع وأخرج، فشفع فيه عند السلطان فخلى سبيله بعد ما أراد أن يعاقبه، فقيل لها: اتفق لفلان مع السلطان كذا وكذا فقالت: علمت ولولا أني سألت التخفيف عنه لقتل، شأنها عجيب ماتت رحمها الله تعالى.

فهذا يا نفس قد قصصت عليك حالة من تقدم وحال بعض من لقيته من رجال ونساء وسكت عن كثير ممن لقيته، وما وجدت لك قدماً معهم ففي أي نمط تتميزين؟ ثم أرجع إليك يا وليي يا أبا محمد فإني إنما ذكرت لك هؤلاء فرحاً أن الزمان والحمد لله لم يخل من الرجال الجارين على أسلوب المتقدمين باختلاف أحوالهم فقد ذكرنا منهم ما حصل به المقصود من الفائدة والاختصار، أما أنت فلا يتمكن لي أن أخاطبك بأحوالك ومقصودي بهذه الرسالة إبراز معرفة نفسانية وربانية تحرض على الكلم الطيب والعمل الصالح فإنما الرجل عندنا هو العالم بالله تعالى الكادح فأخاطبك يا وليي وأريد والله نفسي، وأنبهك وأريد أبناء جنسي وعني أكني، فلا تغتر النفس عن الذكر فإنها الذليلة ولا تنم عن حظها الإلهي بتصاممها عن هذه الفضيلة.

مسألة فمن ذلك وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وإن في ذلك لآيات للعالمين، لتعلم أن الله تعالى خلق كل ما سوى الإنسان باليد الواحدة وقد جاء التنبيه عليها في مواضع من الشريعة في جنة عدن أنها خلقها بيده وهنا بحر طامس، خلق الأسباب كلها بيده وخلق المسببات أيضاً بيده لكن الأسباب الأول ليست في المرتبة كالأسباب الثواني إلى آخر سبب، وقال في خلقه الأسباب والمسببات ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال في الأسباب وحدها ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] فذكر الأمر دون الخلق، فالق بالك لكلامي هذا فإنه عويص وأنا غيور أحب أن أوضح وأحب أن أستر، فخلق الملك والجنة وما يتعلق بهذا الجنس من الشرف والرفعة بجانب الطور الأيمن، فافهم ما أومأنا إليه من صفة الجمال، وخلق إبليس والنار وما يتعلق بهذا الجنس من الوضاعة والسفل بالجانب الغربي من كلتا يديه فافهم ما أومأنا إليه من صفة الجلال، وتمهدت المملكة باليدين وظهر وجودها في العين على التوحيد المطلق من حيث كل واحد منهم يرجع خلقه إلى يد واحدة فعبد ربه من حقيقته واشتغل بطريقته فلم تتصور معصية ولا مخالفة على أن خلق

الإنسان بيديه وهداه نجديه وأوضح سبيله وأظهر به كلمتيه وأبان به عن قبضتيه فنظر إلى العالم ونظر إليه العالم في مملكتيه الكبرى والصغرى فعرف كل واحد ما رأى منه لأنه رأى ما يقابله فالساكن من العالم في الجانب الغربي رأوا سفله فلم يقم عنده قيمته فظهرت في ذلك قبضتهم ليعلموا أنهم أشقياء، والساكن من العالم في جانب الطور الأيمن رأوا علوه فقامت عندهم عظمته وظهرت في ذلك قبضتهم ليعلموا أنهم سعداء، ثم لما كانوا في نور التجريد لم يستطيعوا أن يعرفوا نور التمريج ولما كانت حقيقتهم صادرة عن اليد الواحدة أشهدوا لأنفسهم بالتقديس والتحميد، ولما رأوا توجه اليدين على الإنسان عرفوا أنه لا بد من المنازعة لإمضاء الحكم، وإذا كانت المنازعة فلا بد من الفساد فنظروا حقاً وقالوا صدقاً صلوات الله عليهم، فأعرض الله عن إجابتهم في نفس كلامهم إعراضاً صحيحاً من جهة جعلهم الكل جزءاً وحكموا عليه بصفة النقص فتركهم الحق وما عدلوا إليه وأراد أن يبين لهم حقيقة ما فطرهم عليه وأن الإنسان هو القبضة الجامعة للعاصية والطائعة وأن كل العالم على النصف منه فهو أيضاً على النصف من الحضرة الإلهية فجمع له ما بين يديه لتكمل صورته وتصح خلافته وتتبين مرتبته ويعلم أنه أشرف موجود وأعلى مقصود، ولهذه مدحه لمن نظره بعين النقص بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] في معرض الثناء فعرض في أدبه بغيره وهو الذي حكم عليه بالفساد وسفك الدماء، فما أحسن أدبه، عرض في آداب الملائكة بإبليس فطالبهم بعلم الأسماء وجعل الإنسان عالم العلماء وعرض في آداب إبليس بالملائكة بخلقه بيديه المقدسة والبيضاء فأتعظ إبليس بأدبه وآداب الملائكة واتعظت الملائكة بأدبهم وأدب إبليس، فهؤلاء اتعظوا بامتثال الأمر ففازوا وهذا اتعظ بعد المخالفة فما نفعته موعظته وخسر فلا شيء أنكى على إبليس من ابن آدم في جميع أحواله في صلاته من سجوده لأنها خطيئته فكثرة السجود تحزن الشيطان وطوله وليس الإنسان بمعصوم في صلاته إلا في سجوده فإنه إذا سجد تذكر الشيطان معصيته فحزن فاشتغل عنه بنفسه ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا سَجَدَ ابنُ آدمَ اعْتَزَلَ

الشَّيْطَانُ يَبْكِي»[1] فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان وليس بمعصوم من النفس فخواطر السجود كلها إما ربانية أو ملكية أو نفسية وليس للشيطان عليه من سبيل، وإذا رفع من سجوده غابت تلك الصفة عن إبليس فزال حزنه واشتغل بك ولعل وليي رضي الله عنه يقول والنفس أيضاً تزول في السجود والملك يزول ولا يبقى إلا الحق فإنه يقول: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩] فقد صحت القربة بالسجود وفني الساجد بالموجد عن الموجود فأقول له: نعم يا وليي ما نظرت وبحالك ومقامك قضيت ونحن إنما نتكلم بما تعطيه الحقائق وكيف ارتبطت الرقائق ولو كان الأمر على ما قاله وليي لكان كل إنسان في سجوده بالله عارفاً ومعه واقفاً فانياً عن الإحساس بعيداً عن الالتماس ولم يصح منه دعاء ولا ثناء ولاتضرع ولا بكاء فإن التضرع والدعاء نداء على رأس البعد بالحجاب والمشاهدة للبهت من غير اكتساب فإن وجد وليي مقام البهت في سجوده فتلك حالة لا تطرد حكماً فإن غيره في سجوده يقول رب اغفر لي مغفرة عزماً فهذا مع الملك حتماً وآخر في سجوده يتحدث مع شريكه في دكانه حرباً وسلماً فهذا مع نفسه إما وإما.

رجعنا إلى كلامنا، فأضاف الإنسان إلى يديه ووكل أمره إليه وسخر له منا ما في السموات وما في الأرض وحجبه عن التوكل عليه فظهر الإنسان لنفسه إماماً فالسعيد من لازم الباب لرفع الحجاب والشقي من نبذ ذلك الباب وراء ظهره فحسبه جهالة ما جهل من أمره لا ما جهل من غيره.

ولما قام الإنسان خليفة في الأرض دون السماء لحملها العالمين على السواء فقد جمعت جميع العالم وهي أقل الأجزاء فمن ولي الأرض ولي السماء والنار والماء والهواء ومن ولي السماء فما ولي الأرض وما له من الميزان سوى الرفع وليس له نصيب في الخفض، دليلي على ذلك أيها الولي المالك أن الأرض تحمل الملائكة وليس السماء بمحمل للشياطين ولا لعوالم الأجسام ولهذا كانت الأرض حضرة الخلافة ومنزل الخليفة والسموات فردوس من فراديسه ومنتزه من منتزهاته

---

(١) رواه مسلم رقم (٨١) في الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة .

مسرح روحه المقدس، فإن السماء وأعني به العالم العلوي موجود من الرحمة الخالصة وأن الأرض وأعني به السفل حيث أنزل آدم عليه السلام بعد أحسن تقويم إلى أسفل سافلين موجود من الغضب الخالص، فإن قلت فهذه الرحمة الظاهرة فيها، فتلك رحمة الإنسان ولهذا إذالم يبق إنسان عليها زالت الرحمة بزواله وتوجه عليها فأعدم عينها وهلكت في الهالكين وانتقلت العمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان، فإن قلت وقبل الإنسان قد كانت الأرض موجودة، فذلك لحقيقتين لأن ذلك كان زمان التمهيد للخليفة، والحقيقة الأخرى لحقيقة البرزخية فيها لإنها تشبه العدم لكونها تؤول إلى الفناء وتشبه دار البقاء لأنها قد وجدت يوماً ما، فهذه النفحة الرحمانية في الوجود هي التي أمسكنها حتى ظهر الإنسان فافهم. ولا تقتصر بهذا على آدم عليه السلام فحسب فكل صالح من المؤمنين وغيرهم في وجوده قطب ولم يبق إلا خليفة جائر وخليفة عادل فإما إلى عذاب غير زائل وإما إلى نعيم طائل، ومن هنا وقع الخوف على الخلفاء وأنت وأنا من جملتهم.

فنرجع إلى نفوسنا في هذه الحالة العمياء ونقيم عليها ميزان القضاء والحكم على السواء بمرتبتها التي وجدت لها ومنزلتها العالية السناء، فأقول: يا نفس يا برزخاً بين الضراء والسراء اصطفاك الله دون أهل الأرض والسماء وجمع لك بين يديه إما للشرف الذي عنده أو للابتلاء ومحال أن يكون الشرف لقبضة الأشقياء وإنما الشرف فيه موطن في مقابلة الخصماء فلم يبق أن يكون ذلك إلا لمجرد الابتلاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴾ [الملك: ٢] ولم يقل ليشرفكم، خطاب يشمل جميع المأمورين والأمراء، فمن نصب هذا المنصب وذهب به هذا المذهب كيف يطيب له معاشه أو يستقر به فراشه وهو لا يدري بأي اليد من اليدين ولا بأي العين من العينين ينظر إليه فواجب عليك يا وليي محافظة السر والوقت مخافة أن تفجأك نظرة المقت وأنت لا تشعر بذلك فتكون عند الناس السعيد المالك وعند الله الشقي الهالك، وحكم الله أمضى وحاكمه أقضى، فالويل لمن اغتر ولو بشر و الويل كل الويل لمن اغتر وهو لم يبشر، هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصلب القوي الذي ليس للشيطان عليه سبيل، حسب الشيطان أن

ينجو منه نـزل القرآن موافقاً لحكمه وأداه أن يقول لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ما يعرفه من إيمانه وعلمه، قد جمع بين العلم والعيان وتبرز في صدر مشاهدة الأعيان، ليس أحد من وقته إلى يوم القيامة يبرز أمامه ولا يكون في حالة من الأحوال أمامه، قد اهتز لموعظة أويس القرني خير التابعين همة وقال ما أداه إليه كشفه وعلمه المعصوم «ليت عمر لم تلده أمه» فكيف ينبغي أن تقول أنت وأنا، إلى متى هذه القبيحة على الله تعالى أما آن لنا أن نرجع أما حان لنا أن نرعوي ونقلع وقد دعينا بالعارفين بالله ونحن في حزب إنا لله أترضى لنفسك أن تكون صاحب حال فيحكم عليك هواك وتغلب عليك دنياك ويلتبس عليك أن ذلك من مولاك، هلا أقمنا عليها ميزان العدل وطالبناها بصحة النقل فإنها لا تخلو في اتساعها في دنياها بعد ضيقها وراحتها بعد جهدها من أحد أمرين، إما أن تكون في ذلك تستر مقامها عن الناظرين وتعمي مكانتها عن أبناء الدنيا المعتلفين وتصول بذلك على المترفين وتسعى في الكسب حتى لا يكون عليها يد لأحد من المحجوبين فإن كان هذا فيا جهل هذه النفس ويا حسرتها فلا حال لها ولا مقام عظمت الدنيا وأبناؤها في عينها فصادمتهم وقابلتهم وأين هي من جناح البعوضة ومن تشبيه النبوة لها بالمزبلة والجيفة الى هذا بلغت منـزلة هذه النفس الركيكة مع دعواها أنها السيدة الملكية إن كنت تقول الحق وعزمت على مصادمة الدنيا ومنازعة أبنائها فاستند إلى الحق في خرق العوائد فإن الناس كلهم ينفقون من الجيب وصاحب الحال إنما ينفق من الغيب فاذا رأيت نفسك تحيد عن ذلك فلا تغالط وكن لها المجاهد والمرابط ولا يغرنك حالة طرأت عليك في بدايتك وافقت وقت صدق منك فتتخيل أنها أبقيت عليك والعادة طبيعة خامسة وما عسى الدنيا وأبناؤها حتى تنافسهم فيها وتقول: أرى أن لا يأكلوا عندي ولا آكل عندهم ولا يزوروني ولا أزورهم كل ذلك حظ نفساني وتلبيس شيطاني فإن كنت عبد الله ليقيك فقد حصل لك أجرك في الدنيا وساء منقلبك في العقبى وان كنت عبدت الله لحظ نفسك في الآجل إما لكونها عبداً فتحشر مع النبيين وإما لكونها أجيزت الحسنة بعشرة أمثالها فتحشر مع المؤمنين

فأزور وأزار وأقصد وأقصد وهذا حال النبي ﷺ «كَانَ يَزُورُ وَيُزَارُ وَيَحْمِلُ الكَلَّ وَيُعِينُ الضَّعِيفَ وَيقْرِي الضَّيْفَ وَلا يَبِيتُ عَلَى مَعْلُومٍ وَلايَجْزَعُ مِنَ الفَقْرِ»[١] إلا أن الفقير العارف من لا يبكي غده من أجل رزقه فكيف من أجل خلقه وبهذا تغالط النفس فتقول إنما أمسك هذا الشيء في حق الغير لا في حق نفسي قال الله تعالى يكذبها ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٧ ـ ٥٨]ومحال أن الله يطعم فلم يبق إلا أن يطعم من أجله فمنع من ذلك السادات الكبراء وأبقى ذلك في حالة العامة الضعفاء ونفسي تدعي الخروج عن العامة فقد لزمها أن تخرج عن السعي والادخار في حق الغير فإنه شرك محض، وطعن في القدرة، كما أن المتسبب إذا لم يقدر على الجلوس مع الله مطعون في إيمانه فهذا هو الأمر الواحد من الأمرين فقد بطل دعواها فيه في اتساعها في الدنيا بعد تضيقها، وإن كان يريد الإنصاف من نفسه وهو عند الأكابر مقام نازل ولكن لهذا أن يفعله فإنه ليس من الأكابر حيث رأى للدنيا وأبنائها حظاً وقدراً فيصول عليهم ويتعزز هلا شغلته عبوديته مع عزة الله عن عزته مع ذات الخلق ولقد فاته حظه من الله نسأل الله جميل العاقبة .وأن يطعم الخلق ولا يأكل منه البتة فإن أكل فلنفسه سعى ولها ادخر.

وأما الأخر الذي وسعت به النفس عليها بعد تصنيفها فهو أن يتخيل أن ذلك لا يؤثر في مقامها ولا ينقص لها من مكانتها، ولما كانت غير عاملة للثواب وإنما عملت للعبودية فلا تبالي في أي واد مر بها إذا صح حالها مع الله وليس ثم أمر ثالث والحمد لله فإن كانت فعلته لهذا فلا تشك *أصلاً في جهلها ومعزتها في نفسها لوجوه كثيرة تدل على جهالتها* ، منها جهلها بالموطن حيث عاملته بما لا يليق به فإن الدنيا سجن الملك وهي سجن المؤمن وأنت تدعي أنك فوق الإيمان، وأنا ما

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢١ و ٢٧) في بدء الوحي وفي الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١] ومسلم رقم (١٦٠) في الإيمان، باب بدء الوحي برسول الله ﷺ، ورواه أيضاً الترمذي رقم (٦٣٦٣) في المناقب، باب رقم ١٣ .

أسلمه ولكن صاحب السجن قد أرسلك إليه وأدخلك مع المؤمنين وسجنك معهم بما حجرهم عليك فلا تقدر أن تشرب خمراً ولا أن تكذب في حديث ولا أن تخلف وعداً ولا أن تحلف فاجراً ولا أن تنكح خمس حرائر، وتوجه عليك ما مثل المؤمنين المسجونين، فالحكيم يتنبه ويعرف أن ذلك موطن التكليف وقد لزمه ما لم يكن لزمه وهو خارج السجن فيقول هل هنا أحد من حضرة الملك من طوري وممن هو أرفع مني فيجد الأولياء والأنبياء والمرسلين، فيقول لنا فيهم اقتداء وأنا منهم وهذه أكبر الدعاوي أنا أسلمها وبهذا أمر الله نبيه أفضل الخلق فذكر الأنبياء وما أعطاهم ثم قال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فتنظر في حال الأنبياء فتجد سيدهم وإمامهم اختار الفقر على الغنى والذل على العز للمؤمنين، وقد خيره حين نزل عليه إسرافيل فقال: إن الله خيرك إن شئت عبداً وإن شئت نبياً ملكاً، فأشار إليه جبريل أن تواضع فقال: نبياً عبداً، قال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ قُلْتُ نَبِياً مَلِكاً لَسَارَتْ مَعِيَ الجِبَالُ ذَهَباً وفِضاً»[1] فأعطته المعرفة والهمة حين أشار إليه شيخه بالأولى تمني العبودية فلازم الفقر والذلة والخضوع حتى كان يشد الحجارة على بطنه من الجوع، فهلا اقتدى بهم هذا الشخص ولا يذهب *طيباته في حياته الدنيا*، ولو علم أن المراتب في الجنة على قدر المراتب عند الله لسعى لنفسه ولعقله وكان من الملوك في الجنة وعند الله تعالى ولا كان يتكل على معرفته ويقول بكمال عقله ويجنح إلى الراحات ويكب على الشهوات ويتنعم في لين الثياب ولذيذ الطعام والشراب وأخوه المؤمن لا يجد ما يأكل فيقال له واسه *فيقول حتى يخطر لي ما يلقي الله عندي فيه شيئاً*، ما أجهله بخواطر الحق، إنما يفعل العارفون ذلك فيمن لم تبد منه حاجة ويظهر *عليه الغنى وهو فقير، فيخطر الله* للعارف أنه فقير وهو كشف، وأما من ظهر حاله وبانت فاقته فهي الخاطر الذي أعطاك الله فيه وأنت لا تشعر وهي أقوى حجة عليك فلا تغتر يا من زاحم الأنبياء

---

(١) رواه الطبراني وابن سعد وابن عدي وابن عساكر انظر كنز العمال (٣٢٠٢٨) وهو صحيح .

عليهم الصلاة والسلام بجهله سليمان ويوسف عليهما السلام ولا بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص: ٣٩].

سر عال أخاف من الفتنة في كشفه

وأنا أقول مثل ذلك في العارف الذي يرى أن يده عارية في المنع والعطاء وأن الحساب عنه مرفوع، ولكن الموطن يعطيه أنه إذا إذا كسب الدنيا أنه يتأخر عن درجة الذي لم يكتسب ضرورة في الشفاعة وفي دخول الجنة وفي المنـزلة عند الله تعالى وفي الدنيا فإن الغني يزور الزاهد والأمراء الصادقون يزورون الفقراء الصادقين وهنا سر عال أخاف من الفتنة في كشفه وإيذاعته فسترته رحمة بالعالم حكمت علينا به الحقائق يؤيده من الأخبار «مَا وَسَعَنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي وَوسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِيَ المؤْمِنُ»[1] هذا باب فالفقير يدعوه إلى السكون كسر فقاره فابحث عن السر ولا تفشه ولا تعتمد ولا تجعل حقيقته تحكم عليك فإن المواطن لا يعطيه ولا تترك حقائق جمة كثيرة يعطي استعمالها سعادة لحقيقة واحدة يعطي إما شقاوة وإما نقصاً في المرتبة، فالله الله عليها كن لها كتوماً إن وقفت عليها وقد نبهتك على طرف منها والله المستعان ويكفي هذا المقدار من الوجوه الذي يحتمله هذا الأمر الآخر.

فهذا الابتلاء الذي ذكرناه يوجب علينا الجد والاجتهاد والتجرد عن الدنيا وأسبابها والتفرغ للعبادة كما كان الأنبياء والأولياء والسادة النجباء مثل أبي بكر وغيره وقد مضى طرف من أخبارهم في أول هذه الرسالة، وإما إن لم تنظر في خلقه لك بيديه ابتلاء ونظرته شرفاً ورفعة وهو نظر جهل كما حمل الأمانة لحقيقته ولم يحمل غيرها ولكن قيل فيه ظلوماً جهولاً، فلو حملها جبراً لما نسب إليه الظلم والجهل ولما حملها اختياراً نسب إليه ذلك فاعلم هذا وأنا أسلم لنفسي هذا الجهل وأقول لها إنما خلقك بيديه لشرفك على جميع الموجودات وجعلك إنساناً ولم

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» لم أر له أصلاً.

يجعلك ملكاً ولا شيطاناً فتعيش على النصف من المعرفة ، انظري يا نفس إلى حال من خلقت نشأته على نصف المعرفة كيف قال الله فيهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، هذا شكرهم على معرفتهم وهي نصف المعرفة وأنت قد أنشئت في مقام المعرفة بكمالها والصورة الإحاطية والاستخلاف الإلهي فكان ينبغي أن يكون شكرك أتم من شكرهم وزكاتك أعظم من زكاتهم لأن معرفتك كلية فكان الأولى بك أن تقوم الركعة الواحدة مقام عبادة أهل السماوات والأرض، فإياك أن تحجب نفسك بأن تقول يا أخي كاتب هذه الرسالة ما عرف مقامي ولا من أنا فما قصدتك بالكلام وإنما تكلمت على ما تقتضيه الحقائق وحصرتها حصراً إحاطياً وكشفتها كشفاً اعتصامياً لم يبق ملك ولا رسول ولا نبي ولا ولي ولا أحد إلا دخل في هذا الحصر فلا بد أن تكون يا قارئ هذه الرسالة واحداً من هؤلاء الأقوام والطبقات وادع فيمن شئت فقد سلمت لك ولو ادعيت الملكية وحدها أو الرسالة أو النبوة أو ما ادعيته فالحقائق تحكم عليك قسراً وتردك إلى العبودية وإلى الموطن إن عصمت، وإن خذلت عميت عن الحقائق واستعجلت الآجلة وأجلت العاجلة وجعلت غيرك المحجوب وأنت العاقل عن الله المصيب، فإذا انقلبت وجدت عملك هباء منثوراً وطردتك الحقائق السعادية عن بابها وقالت لا أعرفك فإنك ما صاحبتني في الدنيا ولا تعرفت إلي ودعاك خيالك الفاسد القاصر فرمى بك في سواء الجحيم، فكيف ما نظرت في خلق الحق لك بيديه إن كان ابتلاء فلا بد من الحذر والوزن مخافة النقص والتطفيف وإن كان شرفاً ورفعة فلا بد من الجد والاجتهاد في الشكر كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُم قَلِيلاً**»[1] وكما قال بعض العارفين وقد رأى

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٢١١) في تفسير سورة المائدة باب قوله تعالى ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] وفي الرقاق، باب قوله ﷺ «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**» ومسلم رقم (٢٣٥٩) في الفضائل، باب توقيره ﷺ، والترمذي رقم (٣٠٥٨) في التفسير، باب سورة المائدة .

صوفياً يضحك ملأ فيه لا يخلو أن تكون بشرت بسعادتك أم لا فإن كنت لم تؤمن فما هذه حالة الخائفين وإن كنت أمنت فما هذه حالة الشاكرين، فقد ناط به الذم من الطرفين في ضحكه فكيف لو رآه متنعماً مترفاً ويجمع ويدخر ويمني نفسه بالغرور، وقد تقدم حديث سلمان الفارسي في وقت ذكره لما فتح الله به على بعض الصحابة والتابعين من كنوز كسرى وقيصر وأن الله ما اختار لنبيه الدنيا بل اصطفاه فقيراً لا يبيت على معلوم في البيت حتى مات عليه الصلاة والسلام وأشباه ذلك.

فإياك يا وليي والمغالطة فإن الناقد بصير وإليه تصير الأمور وقد مضت العبارات وطاحت الإشارات وما بقي إلا تسبيحات فلا يغتر العالم بعلمه ما لم يستعمله ولا يغتر باستعماله ما لم يخلص فيه ولا يغتر بإخلاصه ما لم يفن عنه، هذه مسألة من تحقق بها وبمعانيها لم يسكن له جأش ولا يطيب له عيش يشغله شأنه عن كل شأن لما يؤول إليه حاله فإن قوارع القرآن تزعج العاقل اللبيب وتنغص حياة الفطن المصيب مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن: ٣١] وأمثال هذه القوارع والزواجر المتلوة في المحاريب والمحاضر، تقرع أسماعنا آناء الليل وأطراف النهار، فلا معرفة ثابتة في القلوب فيردعنا الحياء ولا خوف فيكفينا الوعيد والتقرير، فلا ندري في أي نمط نتميز ولا بأي فرقة نلحق، نسأل الله لنا ولكم وللمسلمين في جميع الأحوال هنا وعند الموت وفي المآل العافية.

ومما يحض العقل السليم على الاجتهاد ويحول بين جفنه وبين الرقاد نظره في النعم المترادفة عليه إذا حققها وذلك يا وليي أبقاك الله تعالى أن أول نعمة عقلتها من ربك إخراجك من العدم إلى الوجود وقد عدد هذا المقام عليك من جملة نعمة فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧] ثم خاطب بهذا المقام الخاصة الرفيعة من عباده الذين نحن أتباع لهم فقال لنبيه زكريا عليه السلام في وقت تعجبه من قدرة الله تعالى على حكم العادة في إيجاد ابنه يحيى

عليه السلام ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] فإياك أن تتوهم أن هذا الخطاب لزكريا في حق نفسه لإبطال المعنى فيه فإن خلق ابنه أعجب من خلقه في حكم العادة لأن زكريا عليه السلام قد أظهر العلة فلو أحاله على خلق نفسه لما أتاه بأعجب مما تعجب منه وإنما أشار إليه بذلك أن ينظر في أول موجود وهي الحقيقة الإنسانية قبل كل شيء وهي أم الأشياء كلها وليست من شيء وهي سبب كل شيء وليست مسببة عن شيء، ولهذا قال له: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

أمهات الجسد الآدمي

فإن هذا الخلق الترابي الآدمي مسبب عن أشياء نبه عليها عليه الصلاة والسلام بقوله: «**كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ الماءِ والطِّيْنِ**»[1] ولا يكون العدم بين أمرين موجودين لانحصاره والمعدوم لا يوصف بالحصر في شيء، وقال الله تعالى في خلق الجسد الآدمي، خلقكم من تراب ثم قال من طين وهو خلط الماء والتراب وقال من حمأ مسنون وهو المتغير الريح وهو جزء الهواء وقال من صلصال كالفخار وهوجزء النار فهذه أمهات الجسد الآدمي وهي كثيرة فلا يصح على هذا قوله: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فإنه كان شيئاً وانتقل في أطوار العالم من شكل إلى شكل حتى صار على هذه الصفة، وكذلك قال في جسد ابن آدم كما قال في الجسد الآدمي من توقفه على شيء وأن أصله ذلك الشيء، والصورة عرض فيه فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧].

وإياك أن تقول في وقت كنا كذا لم نكن كذا وقد نبه تعالى على أنك هو ذاك وأن أصل جسمانيتك من شيء فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهو الأب إن شئت ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو الابن ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥] تتميز في طور آخر، ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ تمييز أيضاً آخر في طور أخر، وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن﴾ [المؤمنون: ١٢] فجعلك من شيء وهذا طور ﴿جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

(١) قال العجلوني في «كشف الخفا» (٢٠٠٧): لم نقف عليه بهذا اللفظ، وقد صح بلفظ كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد.

[المؤمنون: ١٣] هذا طور آخر ﴿خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[المؤمنون: ١٤] هذا طور آخر وكله الإنسان ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ هذا طور آخر ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ هذا طور آخر ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ هذا طور آخر ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أثنى على نفسه يعلمك صورة الثناء عليه لتشكره لا لتكفره، وهذا كله إنما ذكره ليعدد نعمه التي اختصك بها وحباك، وهذه كلها أشياء علق وجود بعضها على بعض، فقوله على ما تعطيه الحقائق ويعظم التعجب عند زكريا عليه السلام ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] إنما يشير إلى البروز الأول من غير شيء لأن زكريا عليه السلام إنما تعجب من بشراه له تعالى بيحيى على كبره وامرأته عاقر فذكر له ما هو أعجب من ذلك وهو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود فإن النقلة في مراتب الوجود من وجود إلى وجود باختلاف الأحوال أهون من إبراز المعدوم فلهذا كان أعجب مما تعجب منه زكريا، ومن هذا تعجبت امرأة إبراهيم عليه السلام حين بشرت بإسحق عليه السلام فقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] وهذا يا وليي إذا نظرته من الأسرار العجيبة فتنبه له عسى أن تعثر على الفصل بينهما وذلك أن الله قد اخبرنا عن زكريا عليه السلام بما أخبرنا عن امرأة إبراهيم عليه السلام فشرك بين المرأة والرجل في هذا التعجب فشرك بينهما في العلم لأن التعجب على قدر العلم ومعلوم فضل الرجل على المرأة في الميراث والشهادة والصوم والصلاة وللرجال عليهن درجة، وهذه المسألة مسألة مفزعة لتعلقها بباب المعرفة وقد اشترك فيها نبي الله زكريا عليه السلام (وامرأة ليست) بكاملة فحقق خاطرك يا وليي في هذه المسألة عسى تعثر عليها، وكنت أذكر لك وجه الفضل بينهما وأبينه ولكني رأيتك تحب أن تأخذ العلم من ربك فتأدبت معك وأبقيتها مهملة، قال الله تعالى جواباً لزكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] وقال تعالى جواباً لامرأة إبراهيم عليه السلام ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] سر لوّحنا لك وألقينا على الطريق فادرج عليه فإن ما بينك وبين العلم إلا كلمة واحدة، وهذا غاية

ما قدرنا عليه في حقك من تقريب المسألة إلى هذا وسترناها خلف حجاب واحد رقيق والخطاب على قدر العقل فانظره.

فهذا يا وليي أول نعمة أنعم بها عليك لو كلفك الله شكر هذه النعمة وحدها وجعل معك أهل السماوات والأرض بعبادتهم مؤيدين لك عمرك الأخروي الذي لا نهاية له ما قمت بشكرها، كيف وقد انضاف إليها نعم كثيرة غيرها ثم طالبك بالشكر والعبادة على قدر استطاعتك خاصة فأبيت الإنصاف وتكاسلت وتخاذلت وتعامين وتصاممت، ما هذا ممن يدعي العقل والمعرفة بحسن، إنما يقع الاعتراف بالتقصير بما ينبغي لجلال الحضرة من الاجتهاد بعد بذل المجهود، وإياك وشطحة من شطح لسكر غلب عليه فقال: إني أغار على جمال القديم أن يراه المحدث من تدنيس رؤيته، فهذه كلمة ليس لها مدخل في الرجولية وإنما هي شطحة من صورة وقف القائل معها تردها الحقائق، أو تغتر أيضاً بقول القائل من ظن أنه بالجهد يصل فهو متعن، فقد قال هذا أيضاً [ومن ظن أنه يصل بغير الجهد فهو متمن] فقد أشار إلى ما ندبناك إليه من بذل المجهود وصحة القصد ولا وصول إلا برحمة الله، قال الله تعالى في المتمني: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤] فذمه وقال في المتعني ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[الزمر: ٧٤] ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] فمدح المتعني، فإن كان ولا بد فالتعني أولى.

وإن أسقطت الدعوى مع وجود التعني وعدم الالفتات إلى نتائجه إنما يكون خالياً من جميع أعماله وهو فيها متعرض لنفحة من نفحات الربوبية لأن العبادات بحكم التسخير إنما هي للفقهاء العامة الذين أعماهم الله عن الحقائق فقيل لهم قدموا لتجدوا، وهؤلاء هم الجهال عندنا وعليهم توجه التكليف مطابقاً لاسمه فيدخل عليهم في أداء العبادات من الكلفة والمشقة مالا يعلمه إلا الله وذلك لعدم معرفته بمعبودهم واشتغالهم بشهوات نفوسهم وحظوظها عاجلة وآجلة وأما هذه الصوفية المحققون فعبادتهم لا بحكم التسخير لكن من طريق الشكر بشاهد الفناء على ملاحظة العمل ونتائجه فلم يقدموا أعمالهم ليجدوها ويلحقوا بها إنما عملوا

لأن السيد قال لهم اعملوا فلهم العمل والطرح وللسيد إن شاء القبول وإن شاء الرد فهؤلاء توجه عليهم التكليف وارتفع عنهم معناه أي ما فيه من الكلفة والمشقة لقوة معرفتهم بمعبودهم واشتغالهم (بحقوق معبودهم) عن حقوق نفوسهم فلم يتصور أن يطلبوا أجراً لهم إنما هو في كل نفس مشتغل بما كلف في ذلك فهو يجني والباري تعالى يدخر له، والفقيه الضعيف الجاهل صاحب علم الرسوم الذي قد ختم الله على قلبه بشهواته فتراه يلتفت يميناً وشمالاً في صلاته ويحرم الإمام ويبقى هو بعده بقدر ركعة في حضور نيته للصلاة لكثرة شغله عنها بهذيانه ودنياه وكثرة غفلاته، ثم يكرر التكبير مرتين وثلاثاً وأربعاً لشكه في النية لعدم صفاء قلبه وترادف ظلماته فإذا سهل الله عليه وأدى ما كلفه تعالى فهذه حالة المجتهد الحازم، وساق هذه الجناية المسودة الوجه بعدم الحضور فيها مع الله تعالى وسوء ظنه بربه كيف يكون له ذلك العمل مدخراً عند الله تعالى حتى يجده عنده لعدم تطلعه إلى فضل الله عليه فيجنح إلى عمله وهذه كلها علالات فاسدة ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [نوح: ١٤] فكذلك أكثر الشريعة تجري عليهم رحمة بهم لضعفهم وهم في عماية عن ذلك بل من عظيم جهلهم أنهم ما عقلوا عن الله رحمته هذه بهم وتخيلوا أنهم إذا فعلوا هذا واقتصروا عليه أنه لا شيء أعلى منه والخلق دونه لحفظه الحديث والفقه ويقال له يا فقيه ما تقول في رجل حلف على كذا فيحكم فيها بحكم الله "مشروع ويحجبه ذلك المنصب عن القلب المختوم عليه بحب الدنيا وتعظيمها ونظره الفقراء وأولياء الله تعالى بعين الازدراء والجهل لكونهم لا يعرفون مسائل العتق والطلاق والنكاح، فهم الأغمار الجهلاء، فهذا وأشباهه حجبهم عن الله وطردهم عن بابه، وما زالت الفقهاء في كل زمان مع المحققين بمنزلة الفراعنة مع النبيين.

الجمادات عالمة بالله تعالى ناطقة به في عالمها

ثم ننتقل يا وليي إلى الأم الثانية من هذه النعم الثانية وهي أن تنظر إلى كونه أوجدك متغذياً نامياً ولم يجعلك جماداً صلداً وإن كانت الحجارة والجمادات عندنا

على خلاف ما يراها الناس كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فوصفها بالخشية وغيرها وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقال تعالى للسماوات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقال تعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] أي رجعي معه التسبيح وسيري معه وقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦] وقال عليه الصلاة والسلام «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ**»(١).

وقال في أحد «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»(٢) وقال موسى عليه السلام «ثَوْبي حَجَر ثَوْبي حَجَر»(٣) يناديه، وسبح الحصى في كفه ﷺ وما أشبه ذلك، فالجمادات عندنا عالمة بالله تعالى ناطقة به في عالمها وهي على حسب أفقها وفلكها ولها نذير من جنسها وهي عندنا أمة من الأمم قد فضل الله بعضها على بعض. فكانت القدرة ممكنة لما أوجدتك ولم تك شيئاً أن تنزلك في أمة الجمادات ولكن مقام النبات أعلى وأمته أفضل فجعلك متغذياً نامياً ولم يجعلك جماداً وهذه نعمة كبيرة لا يؤدى شكرها ولا يقدر قدرها فاجتهد عافاك الله جهدك، فإنك مسؤول على قدر معرفتك وتدقيقك فإن العوام ما تسأل عن هذه النعم التي ذكرناها ونسأل عنها فسؤالنا أشد

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٦٢) في الجهاد ومسلم رقم (١٣٩٣) في الحج، باب أحد يحبنا ونحبه أخرجه الموطأ (٢/ ٨٩٣) باب جامع ما جاء في أمر المدينة والترمذي رقم (٣٩١٨) في المناقب، باب ما جاء في فضل المدينة .

(٣) رواه البخاري (١/ ٣٣٠) في الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده، وفي الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام، وفي تفسير سورة الأحزاب، باب قوله تعالى ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ [الأحزاب: ٦٩] ومسلم رقم (٣٣٩) في الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة، ورقم (٣٣٩) في الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام، والترمذي رقم (٣٢١٩) في التفسير، باب ومن سورة الأحزاب .

فينبغي أن يكون علمنا أتم، ولا تكن وليي كقوم رأيتهم فأبنت لهم ما لله عليهم من النعم ليجتهدوا وأمرتهم بما أمرتك وأمرت به نفسي فأبوا قبول ذلك وقال كل واحد منهم لما أراد الله خذلانه أن العبد لا يفي أبداً بشكر نعمة واحدة مما أنعم الله به عليه فكيف أن يستغرقها فالتعني لا فائدة له، فقلت صدقتم في أن أحداً لا يفي بشكر الله تعالى فإن الشكر منه على النعمة نعمة ولنا في هذه المعرفة ذراع أطول من ذراعكم وأزيد مما عرفتموه ولو عرفتموه ما عبدتم الله أبداً مما ترون من الحقائق وأنتم قاصرون ولكن ينبغي للعبد أن يبذل الطاقة التي أعطاها الله تعالى في مرضاته على الاستيفاء فإذا لم يبق له اتساع حينئذ يقول إنه لا يفي وأن ذلك عقد في القلب والجوارح تتصرف بالأعمال، فإياك والبطالة فقد تقدمك النبيون والمرسلون والملأ الأعلى من الملائكة والعارفون وصالحوا المؤمنين بالاجتهاد والكد مع صحة التوحيد والمعرفة والقصد وما قال بقولك هذا إلا الإباحية والمنحلة عقائدهم الذين قالوا بإسقاط الأعمال نسأل الله لنا ولكم وللمسلمين العصمة في الحال والمآل.

ثم زادك الله نعمة على هذه النعمة بأن نقلك من أمة النبات والشجر إلى أمة الحيوان فجعلك حساساً فوجب عليك من الشكر والعبادة ما وجب على الجماد والنبات والحيوان فإنك قد جمعت حقائقهم وزدت على كل واحد منهم فينبغي لك أن تعمل على كشف عبادة العالم سفله وعلوه وما هم فيه فتأخذ نفسك بعبادة كل طائفة منهم فإنك مشارك لهم في حقيقتهم، ولهذا أنت الأم الجامعة لحقائقهم، ثم إنه ما منها من أمة من الجمادات والنبات والحيوان وغير ذلك إلا ولهم عبادتان: عبادة تعم الأمة كلها، وعبادة تخص آحاد الأمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] فهذه عبادة الأشخاص على الانفراد وأنا لا أطالبك بعبادة الأشخاص وإنما أطالبك بالعبادة التي يشترك فيها جنس تلك الأمة، وإنما يتوجه عليك عبادة أشخاصها إذا أوقفك الحق مع واحد منها. فحينئذ وفي جملة أشياخنا الذين انتفعنا بهم في طريق الآخرة في هذه الأمم ميزاب رأيته في مدينة فاس في حائط ينزل منها ماء السطح مثل ميزاب الكعبة فوقفت على عبادته

وأجهدت نفسي عسى أجري معه في ذلك، ومنهم ظلي الممتد من شخصي أخذت منه عبادتين قد أخذ نفسه بهما وأشباه ذلك، وأما الحيوانات فلنا منهم شيوخ ومن جملة شيوخنا الذين اعتمدت عليهم الفرس فإن عبادته عجيبة، والبازي والهرة والكلب والفهد والنحلة وغير ذلك، فما قدرت قط أن أتصف بعبادتهم على حد ما هم عليها، وغايتي أن أقدر على ذلك في وقت دون وقت وهم في كل لحظة، مع اعتقادهم بسيادتي عليهم يوبخوني ويعاتبوني ولقد ألقى منهم شدة لما يرونه من نقص حالي في عبادتهم، وربما يغتاط بعضهم علي حتى تحجبه غيرته في دين الله تعالى من أجل تقصيري فيهم ويغيب عن سيادتي عليه لمعصيتي وسوء معاملتي مع الله فتزول طاعتي من عليهم وأعذرهم في ذلك وأسلم لهم في إخلاصهم، فإن أبا بكر رضي الله عنه قد قال لما ولي الخلافة أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم، وقال الحق، فينبغي لك يا وليي إذا آذاك حيوان من الحيوانات من كلب أو دابة أو حنش وغير ذلك من الأمة الحيوانية، أو آذاك عود من شجرة أو ورقة من الأمة النباتية أو آذاك حجر بأن تعثر فيه أو يسقط عليك من حائط أو يرميه صبي أو أحد على شيء فيترك الحجر المشي لما رمي له وينصرف إليك فلا تغضب وأنصف وارجع مع نفسك على حالك، وأقم عليها ميزان العدل فيما كلفها الله من مراقبته والحضور معه، فلا بد ضرورة أن تجد قصوراً أو تفريطاً فيك في العبادة التي توجهت عليك مما تعبد به ذلك الذي آذاك من حيوان أو نبات أو حجر، فاستغفر الله وتب وأخلص واعزم على أن لا تعود فإنه يذهب عنك ذلك الألم من حينه، فإن تقويت خاطبك ذلك الذي آذاك فتسمى كرامة وليست الكرامة على الحقيقة ألا تنبهك لهذا وتوبتك وهروبك إلى مواطن الموافقة.

فلا يغرنك يا وليي قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] لم يقل: فعلت ذلك ليسعدكم ولا أيضاً ليشقيكم فبقيت على قدم الحذر والغرور واقفاً فتحفظ، فإنها آية فتنة يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء، قال كليم الله موسى عليه السلام ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾

[الأعراف: ١٥٥] فلا يغرنك رفعتك على جميع الموجودات من جهة الحقائق التي أنشئت عليها علواً وسفلاً، فإنها ليست برفعة إلهية وإنما هي رفعة تعطيها الحقائق، لا تعصم من نار ولا تدخل نعيماً ولا يدخل بها أهل الجنة في جنتهم ولا أهل النار في نارهم، فلا فائدة فيها ولا سلطان لها على السعادة وبها زلت أقدام أكثر أهل هذه الطريقة وهي التي أخرجتهم عن الشريعة، وإنما يغتر الإنسان بالرفعة الإلهية الاختصاصية الصفاتية الزائدة على الإنسانية وهي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢] على ذلك عول أئمتنا وساداتنا من المعصومين الأنبياء والمحفوظين من الأولياء وما ثم من يقتدي به إلا هؤلاء، قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣] فهذه نعمة يجب عليك نظر قوي فيها.

ثم زادك الله تبارك وتعالى نعمة أخرى إلى هذه النعم فجعلك ناطقاً وفضلك على الحيوان الحساس خاصة فزدت معرفة بما لا يعرفه الحيوان، فتزداد عبادة واجتهاداً على حسب الطور الذي انتقلت إليه، وهنا عليك نعمتان كبيرتان، النعمة الواحدة بأن أعطاك بنطقك حقيقة الملك، وهو الاشتراك في العقل الإلهي، فوجب عليك ما وجب على الملك من جهة روحك وقد سمعت بعبادة الملائكة التي أخبرنا الله تعالى على مراتبهم وقد دخلت أنت بعقلك معهم فتوجه عليك في روحك العقلي وسرك اللطيف الملكي ما توجه على الملك فأنت مطالب بالحضور الدائم، وشاركت النازلين عنك من عالم الأجسام جمادهم ونباتهم وحيوانهم في حقائقهم التي لم يشاركهم فيها ملك فتوجهت عليك كما ذكرناه عبادتهم، فكل عبد الله مطلوب في العبادة بما تقتضيه حقيقته، فالملك مطلوب في عبادته بحقيقته ما عليه مزيد، والحساس مطلوب في عبادته بثلاث حقائق: بحقيقة انفصاله من النبات والجماد وبحقيقة اشتراكه مع عالم النبات والجماد، وعالم النبات مطلوب في عبادته بحقيقتين: حقيقته التي انفصل بها عن الجماد، وحقيقة اشتراكه مع عالم الجماد، وعالم الجماد مطلوب في عبادته بحقيقته فإنه لا شيء أنزل منه، والملك

مطلوب بحقيقة واحدة أيضاً في عبادته لأنه لا شيء أرفع منه، ولهذا أبداً يقابل العلو السفل والأول الآخر، والشيء نقيضه أبداً،

الإنسان مطلوب في عبادته بخمس حقائق

وأنت يا وليي الذي هو الإنسان مطلوب في عبادتك هذه بخمس حقائق حقيقة الملك فإنها فيك، وحقيقة الحساس، وحقيقة النبات، وحقيقة الجماد، وحقيقة الجمعية لهذه، فإذا وفيت بشكر هذه الحقائق وتأيدت بها وعبدت الله على مقدار ما أعطاك من التمكين في الكشف من معرفتها، إن كنت مريداً صادقاً بعد هذه تنتقل إلى أول قدم من ظاهر الشريعة ولا تقل إنك أرفع من الجماد ولا أشرف من الملك ولا أحط منه فإنك في طور آخر مفرد يخصك، وذلك أن الله تعالى قد وهبك سر الجمعية العامة، وهو الذي حجبك عن عبوديتك وبه ترأست حتى قيل في الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] فإنهم ما ترأسوا قط لعدم سر الجمعية العامة الكبريائية إلا من حقائقهم فكانوا عبيداً وكذلك من نزل عنهم من طبقات العوالم إلا أنت، فإن سر الجمعية مثبوت، فيك وبهذا صح لك مقام الخلافة على العوالم وبه طلبت التقدم والرياسة واحتجبت عن الله تعالى، وهو قوله ﷺ «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»[1] فإن سر الجمعية العامة الكبريائية هو الذي حجبك عنه تعالى ولو أبقاك كما أبقى العالم معرى عنه لكنت عبداً فنبه نفسك.

ولما علم سبحانه أن سر الألوهية في الإنسان داء عضال كثرت الأدوية فيه فما زال ينبهك في كتابه العزيز على أدويتك لهذا الداء لتستعملها فتبرأ منه فقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧] فهذه حقيقتك الملكية وفي هذه لآية لم تزل الملائكة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ

---

(١) قطعة من حديث علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في آخر وتره: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» رواه مسلم رقم (٨٦) والترمذي (٣٥٦١) أبو داود (١٤٢٧).

جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٍ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الروم: ٥٤] فالضعف الأول بحكم التحقيق لا بحكم التفسير، خلقه إياك على فطرة العالم كله والقوة نفخة سر الجمعية العامة الكبريائية فيك بعد تسويتك، والضعف الثاني الشيبة هو ما حصل لك من شرب دواء المعرفة الذي أعطاك فاستعملته وبهذا تقع الفائدة فلست من نمط العالم في شيء ولا تتميز معهم البتة فإنك انفصلت عنهم تسر الألوهية فإن استعملته ولم تشرب من هذه الأدوية شيئاً خرجت مع فرعون والنمرود وكل من ادعى الربوبية على قدره من كلمة فرعون إلى قول الإنسان لولا ما قلت له كذا لا تفق كذا، لولا أنا لهلك العيال، وهي أدنى المراتب في الألوهية،حتى الشيخ في هذه الطريقة يقول لولا همتي في فلان أصحبته إياها وإلا فقد كان هلك، وهذه كلها علل وأمراض من داء سر الألوهية، وكل واحد من هذه الأصناف معاقب على قدره إما بالعقوبة وإما بنقص الحظ فلا بد من العقوبة، ولهذا يعلو البقاء عندنا على الفناء، وهذه حقيقة لم يشعر بها من تقدم من أصحابنا فاعرفها يا وليي.

فإذا لم يتميز الإنسان مع العالم لسر الجمعية الكبريائية فلا يقال من أشرف الملك أو الإنسان؟ فصار الإنسان يزاحم الألوهية لوقوفه على الأسماء كلها من جهة سر الجمع العام الكبريائي المثبوت فيه فعظم حجابه وسجد له العالم أجمع من أجل ذلك السر، فالقوي (منا المتمكن) هو الذي يخرق حجاب سر الجمعية العامة الكبريائية بينه وبين ربه حتى يشاهد ألوهية ربه دون ألوهيته (فيعرف عبوديته) فحينئذ، يكون أقوى العالم وأشد لرفعه ذلك الحجاب الأقوى فتكون منزلته أعلى لأن قوته أعظم وهناك يتميز ويتجارى مع العالم في الرفعة الانحطاط وهناك رأيت مبلغ العالمين العارفين وأما المدرك الذي أومأنا إليه فبعيد أن تسمعه في غير هذه الرسالة على درج هذا التحقيق لكن تجده مبدداً في أشياء كثيرة نوميء إليها ولا توضح مثل هذا الإيضاح، وكما توجه إليك بمشاركتك أطوار العالم أن تقوم بالجامع الكبريائي معهم في عبادتهم كذلك توجه عليك بالسر الجامع الكبريائي المثبوت فيك أن تجريه على ما أجراه الله تعالى من نفسه في خلقه فهو اللطيف بعباده فكن كذلك وهو

الرحيم الغفور فكن كذلك وبهذا وصف نبيه ﷺ فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] فسر الألوهية أثمر لك هذا بعد خرقه، وأما قبل أن تخرقه فإنه أثمر لك ما أثمر للجبارين المتكبرين قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥] فمن أجل سر الألوهية ختم عليه بالشقاء فتحقق هذا الفصل وتحفظ منه.

واعلم أن التوبة والتوكل وما أشبه ذلك قد اختص الله بها هذا العبد الإنساني فإن الملك طاعة بلا معصية والشيطان معصية بلا طاعة فكلاهما قد فقد حلاوة التوبة ومقامها وسرها ومعرفتها وشرفها ومحبتها فإن الملك لا يعصي فيتوب فينالها والشيطان لا يجنح إلى الطاعة ولا يحدث بها نفسه فيتوب من مخالفته فينالها، وقد اختص بها هذا العبد المجتبى ولهذا كانت من كمال آدم عليه السلام حتى عم جميع المقامات فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢]كذلك التطهير الذي اقترنت به محبة الله تعالى فإن الملك مطهر لا متطهر، والشيطان مدنس لا يتطهر، وعلق الله محبته الاختصاصية بالمتطهر فنالها الإنسان (فما لنا يا وليي) نغفل عن شكر هذه النعم ونحن منها في مزيد، فهذه النعم كلها هي التي تعطيها حقيقة الإنسان بما خلق عليه سواء كان سعيد أو شقياً.

ثم ننتقل إلى نعم الاختصاص بالسعداء التي تميزك عن الأشقياء من جنسك فأولها أن جعلك موحداً ولم يجعلك مشركاً لا ليد تقدمت لك عليه ولكنه أيدك وقواك حتى خرقت حجاب الجمع العام الكبريائي الذي استودعه فيك منه فنفذت من ورائه إلى عبوديتك فعاينت ألوهية الحق المقدسة الجلال فوحدته ولم تشرك وهؤلاء هم أهل لا إله إلا الله المقطوع لهم بسعادتهم المنبه عليهم في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨] وهنا بحور عظام هلك فيها عالم كثير من أهل طريقتنا لعدم التحقق ووقوفهم مع سر الجمعية العامة الكبريائية الذي فيهم فحجبتهم الرياسة عن استيفاء الخدمة، فهذا اختصاص إذ قد قسم جنسك إلى موحد وإلى مشرك وجعلك من حزب الموحدين وهذا فيه تفصيل كثير نخاف من طول

العجالة في إيراده فتركناه، وهذا هو أول قدم في الشريعة فإن الشارع أول ما أتى به لا إله إلا الله فلم يجبه إلا من خرق حجاب سر الجمعية الكبريائية منه وبهذا يقع الاشتراك وتتباين مراتب أهل لا إله إلا الله على حسب رفع حجابهم فمنهم من يقولها ابتداء معه من غير نظر وهو الإمام ومنهم من يقول معه ذلك بعد رؤية برهان فهذا جاهل بنفسه فإن لا إله إلا الله من مدركات العقل بالنور الإلهي فتوقفه دليل على التقليد وفقد ذلك النور ولكن سعد بإجابته ولو ببرهان، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠] فاعبد الله يا وليي واجتهد على شكر نعمة التوحيد الأولية في الشرع لأهل التقليد، ثم زادك إلى هذه النعمة نعمة أخرى وهو إيمانك بالرسول ﷺ ولم يجعلك مكذباً برسوله كما فعل بغيرك من أبناء جنسك حيث كفر برسوله مثل فرعون وآله بموسى عليه السلام والنمروذ وآله بإبراهيم عليه السلام وأبي جهل وأصحابه بمحمد عليه الصلاة السلام، وعذاب كل فرعون على مقدار نعيم نبيه الذي كفر به، وسفله على قدر علو نبيه، وكذلك العارفون الصالحون مع المنكرين عليهم من الفقهاء علماء الرسوم ينقص من حظ نعيمهم في الدار الآخرة على قدر مرتبة العارف الذي أنكروا عليه، وعليهم نقص نعيم أتباعهم في ذلك المقلدين لهم، فينقص للفقيه صاحب علم الرسم إذا أنكر على الولي العارف ما لا يبلغه علمه من نعيمه في الجنان إذا سعد على قدر مرتبة ذلك الولي في المعرفة بالله وقدر السر الذي أنكره عليه وعلى قدر من اتبعه في إنكاره من المقلدين، ومن هذا كان يفزع شيخنا موسى أبو عمران موسى المارتلي كان من أهل علم الرسوم وعلم هذه الطريقة وهو الذي ذكرناه في جملة أشياخنا من أهل الطريقة في هذه الرسالة، نحا منحى المحاسبي، دخل عليه أبو القاسم بن عفير خطيب أشبيلية فتكلم معه فيما يأتي به أهل هذه الطريقة من المعارف التي تقصر أفهام علماء الرسوم عنها لأنها علوم نبوية وهذه العلوم الخبرية لا يقوم دليل العقل عليها فلم يبق إلا مجرد الإيمان بها لأنها علوم إخبارية تحتمل الصدق والكذب

وكذلك إذا أتى بها الرسول يتلقونها الفقهاء بالقبول فلو أحالها العقل لردت أبداً في كل حال وما يشعر الفقهاء بهذا القدر، فقال أبو القاسم الفقيه لشيخنا أما أنا فأنكرها فقال له الشيخ أبو عمران أما أنا فأومن بها كلها وإياك يا أبا القاسم أن يجمع الله علينا فيها حرمانين، لا نراها من أنفسنا ولا نصدق بها من غيرنا فيكون العامي أحسن حالاً منا في ذلك عند الله، فتنبه الفقيه أبو القاسم الخطيب وقال نبهتني رضي الله عنك، ولم أحضر هذا المجلس ولكنه أخبرني به أبو القاسم الفقيه المذكور المنكر، ومن ذلك الوقت صار يحبني وينظرني بعين التعظيم، فقد حبانا الله يا وليي بالإيمان بالنبيﷺ وحين خذل غيرنا ففرض علينا شكر الله وعمل زائد بمزيد هذه النعمة، ثم نعمة أخرى لما جعلك مؤمناً بنبي جعلك من أمة محمد ﷺ ولم يجعلك من أمة غيره من الأنبياء، وهنا نعم منها أن ألحق هذه بدرجة الأنبياء باتباعهم محمداً ﷺ وعيسى عليه السلام من جمله أمة محمد ﷺ وهو رسول الله وروحه وكلمته وقد دخل في عددنا وهذا مقام، والنعمة الأخرى أن جعلك شهيداً على سائر الأمم وهي مرتبة النبوة فإنهم الشهداء على أممهم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِۚ﴾ [النحل: ٨٩] فالأنبياء شهداء على أممهم، وقيل فينا: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فقد شركنا معهم في [illegible] مع النبيين وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فوصفنا بالعدالة ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وإن شئت جعلته من الشيء بين الشيئين شهادتك على الناس وشهادة الرسول عليك وأنت بينهما، ونعمة أخرى لم يعطها أحداً قبلك من الأمم فإنك مؤمن بنبيك آخر الأنبياء وبمن تقدم إلى آدم، وغير ذلك من النعم التي يتضمنها هذا المقام، ولكل نعمة شكر يخصها وعمل يطابقها فلتجتهد في تحصيله أو تحصيل ما أمكن منه.

ثم بعد هذا أن قسم أمة نبيه بين مبتدع ومحفوظ فحفظك من البدعة وميزك في ديوان السنة فهذا اختصاص، ثم أهل السنة قسمهم قسمين عالم وجاهل فجعلك عالماً بما تعبدك به من شريعته ولم يجعلك جاهلاً بذلك فهذه نعمة يجب أيضاً

شكرها، ثم جعل العالمين على قسمين طائع وعاصي فجعلك من الطائعين ولم يجعلك من العاصين فهذه نعمة عظيمة، والطاعة على مقاماتها أن عصمك من الشيء بنقيضه وذكره يطول، ثم جعل الطائعين على قسمين عارف وعابد فجعلك من العارفين العابدين فهذه نعمة يجب الشكر عليها ثم قسم العارفين قسمين وارث وغير وارث وجعلك من الوارثين والوارثون على حسب مراتبهم، فقد غمرت النعم ولا يتسع الليل والنهار لأداء شكر واجبات هذه النعم أنه إن أُشْغِلْنَا بواحدة منها فغايتنا أن نقطع ضياءنا وظلامنا ببعض ذرة من واحدة منها، فعلى هذا يجب علينا الذي يمكننا أن نفعله أن لا يرانا الله وقتاً واحداً بطالين ولا متصرفين في مباح إلا حاضرين بقلوبنا على الدوام مكفوفي الجوارح عن التصرف المحظور علينا مطلوقي الألسنة بالذكر وبإظهار العلم والشكر عليه والاعتراف بالتقصير دائماً وتوبيخ النفوس الذي أراده الحق منا لا تعديلها وتزكيتها فقد أفلح من زكاها بالأعمال الصالحة وقد خاب من دساها مثلي فأدخلها في الصالحين وليست منهم.

فهذه يا أخي نصيحتي لي ولك لما رأيتك مثلي وأحببتك في الله تعالى وأعجبني إنصافك وتعشقت معاشرتك ووددت اليوم أن أكون معك وأنصحك حيث كنت وتوبخني وأوبخك ونكون رفيقين في الله تعالى محبين فيه حتى نموت، فما أحبني فيك وأشفقني عليك، رضي الله عنك، ولقد تمنيت أن أكون معك كما حدثنا أبو محمد يحيى بن أبي الحسن رضي الله عنه قال ثنا أبو الفتح عبد الباقي بن أحمد بن سلمان حدثنا أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون حدثنا أبو علي الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان حدثنا أبو الحسن بن عبد العزيز الخرزي حدثنا أبو حفص التنسي حدثنا أبو معبد قال سمعت بلال بن سعيد يقول أخوان في بني إسرائيل خرجا يتعبدان فلما أرادا الطريق فرق بينهما قال أحدهما لصاحبه خذ أنت في هذا الطريق و آخذ أنا في هذا الطريق فإذا كان رأس السنة فهذا الموعد بيني وبينك فخرجا يتعبدان، فلما كان في رأس السنة اجتمعا في ذلك المكان فقال أحدهما لصاحبه أي ذنب فيما عملت أعظم، قال بينما أنا أمشي على الطريق إذ بسنبلة فأخذتها فألقيتها في إحدى الأرضين أرض عن يميني وأرض عن شمالي ولا

أدري هي للأرض التي ألقيتها فيها أم للأخرى، قال ثم قال المسئول للسائل أي ذنب أعظم قال لا أعلم إلا أني كنت أقوم إلى الصلاة فأميل مرة على هذه الرجل ومرة على هذه الرجل فلا أدري أكنت أعدل بينهما أم لا فسمعهما أبوهما من داخل الدار فقال اللهم إن كانا صادقين فأمتهما فخرج فإذا بهما قد ماتا، فهكذا يا وليي يكون اجتماع أهل الله ومخاطباتهم على ذكر المعايب والأنصاف، لا على وجه المدحة والإنصاف، هل يذكر في السجن إلا ما يليق به، إذا ترحلت ونزلت في مستقر الرحمة وجنيت ثمرة عملك هنالك تذكر ما يليق بموطن الحسنى من محاسنك وأما هنا فلا فإنها دار البلاء والاقتراف والاجتراح والإنسان فيها من نبي وغير نبي مسجون على دمه لا يخرج منها إلا بالقتل ولو لا التطويل لتكلمنا على مراتب السجن والمسجونين بما تعطيه الحقائق الثابتة والعارية ويكفي هذا القدر فيما بيني وبينك، ويعلم الله لولا ودي فيك وحرمتك التي لك في نفسي ما خاطبتك بشيء من هذا كله ولا ذكرت اسمك ولتركتك مهملاً في جملة عباد الله تعالى لكن الله قد عرف بيني وبينك روحاً وجسماً ومعنى ورسماً فلم أتمكن أن أخاطبك إلا بما يقتضيه الود الصريح والدين الخالص الصحيح، وأما فضلك وتقدمك في طريقك عندي فمشهور وفوق كل ذي علم عليم ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وقل اليوم من يصحبك لله فأكثر الصحبة معلومة في زمانك من أجل هذه الأعراض واستحكام سلطان الأغراض وعبد الله قليل، ولنا في هذا المعنى أبيات وهي هذه:

انْظُرْ إلى هَذَا الوُجُودِ المُحْكَمِ ... وَوجُودُنَا مِثْلَ الرِدَاءِ المعْلَمِ

وانْظُرْ إلى خُلَفَائِه في مُلْكِهِم مِنْ ... مِنْ مُفْصِحٍ طَلْقِ اللِّسَانِ وَأَعْجَمِ

مَا مِنْهُمُ أَحَدٌ يُحِبُّ إِلَهَهُ ... إلا وَيُمزِجُهُ بِحُبِّ الدِّرْهَمِ

فَيُقَالُ هَذَا عَبْدُ مَعْرِفَةٍ وَذَا ... عَبْدُ الجنَانِ وَذَا عَبِيْدُ جَهَنَّمِ

إلا القَلِيلَ مِنَ القَلِيلِ فَإِنَّهُمْ ... سَكْرَى بِهِ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ تَوَهُمِ

فَهُمْ عَبِيدُ الله لا يَدْرِي بِهِمْ ... أَحَدٌ سِوَاهُ لا عَبِيدُ المُنْعِمِ

إلى آخر القصيدة. فآجهد نفسك يا وليي في أن تتحلى بحلية قوم بكى رسول الله ﷺ شوقاً إليهم لا يؤثر فيك كلام المغرورين من الفقهاء علماء السوء الذين لبسوا رقاق الثياب وتناولوا لذيذ المطاعم فإذا قلت لهم في ذلك تلوا عليك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فقد أخبرنا النبي ﷺ أنهم سيقولون هذا إذا قلت لهم في ذلك على ما كتب به إلينا شيخنا أبو محمد بن محمد بن سعد الله بن محمد البجلي البغدادي الحنفي رضي الله عنه من حديث سعيد بن زيد بن نفيل قال سمعت النبي ﷺ و قد أقبل على أسامة بن زيد فقال: «يا أسامة عليك بطريق الجنة وإياك أن تختلج دونها فقال يا رسول الله وما شيء أسرع به ذلك الطريق قال الظمأ في الهواجر وكسر النفس عن لذة الدنيا يا أسامة وعليك عند ذلك بالصوم فإنه يقرب إلى الله عز وجل إنه ليس من شيء أحب إلى الله عز وجل من ريح فم الصائم ترك الطعام والشراب لله عز وجل وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل فإنك لا تدرك شرف المنازل في الآخرة وتحل مع النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، تفرح بقدوم روحك عليهم ويصلي عليك الجبار تبارك وتعالى، وإياك يا أسامة وكل كبد جائع يخاصمك إلى الله عز وجل يوم القيامة، وإياك يا أسامة ودعاء عباد قد أذابوا اللحوم وأحرقوا الجلود بالريح والسمائم[1] وأظمأوا الأكباد حتى غشيت الأبصار فإن الله عز وجل قد نظر إليهم وباهى بهم الملائكة عليهم السلام، بهم تصرف الزلازل والفتن، ثم بكى النبي ﷺ حتى اشتد نحبيه وهاب الناس أن يكلموه حتى ظنوا أن أمراً قد حدث بهم من السماء، ثم تكلم فقال ويح هذه الأمة ما يلقى منهم من أطاع الله ربه عز وجل فيهم كيف يقتلونه ويكذبونه من أجل الله تعالى، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله والناس يومئذ على الإسلام قال نعم قال ففيم إذن يقتلون من أطاع الله وأمرهم بطاعة الله فقال يا عمر ترك الناس الطريق وركبوا الدواب ولبسوا الثياب وخدمتهم أبناء فارس يتزين الرجل منهم تزين المرأة

(١) السمائم: الرياح وتسمى رياح السموم.

لزوجها ويتبرج تبرج النساء زيهم زي الملوك الجبابرة ودينهم دين كسرى وهرمز يتسمون بالجشا[١] فإذا تكلم أولياء الله عز وجل عليهم العباء منحنية أصلابهم قد ذبحوا أنفسهم من العطش فإذا تكلم منهم متكلم كذب وقيل له أنت قرين الشيطان ورأس الضلالة تحرم زينة الله والطيبات من الرزق ويتلون كتاب الله على غير علم استذلوا أولياء الله عز وجل»[٢]

صفات أولياء الله

اعلم يا أسامة أن أقرب الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة من أطال حزنه وعطشه وجوعه في الدنيا، الأخفياء الأبرار الذين إذا شهدوا لم يقربوا وإذا غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الأرض يعرفون في أهل السماء ويخفون عن أهل الأرض وتحف بهم الملائكة، تنعم الناس بالشهوات وتنعموا هم بالجوع والعطش، لبس الناس لين الثياب ولبسوا هم خشن الثياب وافترش الناس الفراش وافترشوا الجباه والركب، ضحك الناس وبكوا، يا أسامة لا يجمع الله عز وجل عليهم الشدة في الدنيا والآخرة، لهم الجنة فيا ليتني قد رأيتهم، يا أسامة لهم الشرف في الآخرة ويا ليتني قد رأيتهم الأرض بهم رحبة، والجبار عنهم راض، ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوا، الراغب من رغب إلى الله مثل رغبتهم والخاسر من خالفهم، تبكي الأرض إذا فقدتهم، ويسخط الله على كل بلدة ليس فيها مثلهم، يا أسامة إذا رأيتهم في قرية فاعلم أنهم أمان لأهل تلك القرية لا يعذب الله عز وجل قوماً هم فيهم، اتخذهم لنفسك عسى أن تنجو بهم، وإياك أن تدع ما هم عليه فتزل قدمك فتهوي في النار، طلبوا الفضل في الآخرة، وتركوا الطعام والشراب على قدرة لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيفة، شغل الناس بالدنيا وشغلوا أنفسهم بطاعة الله عز وجل، لبسوا الخلق وأكلوا الفلق تراهم شعثاً غبراً، يظن الناس أن بهم داء وما ذاك بهم ويظن الناس أنهم خولطوا وما خولطوا ولكن خالط القوم حزن

---

(١) **يتسمون بالجشا**: بالشبع.

(٢) لم أجده.

وتظن أنهم ذهبت عقولهم، وما ذهبت عقولهم ولكن نظروا بقلوبهم إلى أمر ذهب بعقلوهم عن الدنيا، فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول، يا أسامة عقلوا حين ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الآخرة»[(١)] حدثنا بهذا الحديث الطويل بطوله المهذب أبو محمد عبد الكريم بن يوسف بن الحسن، فانظر يا وليي وصف حبيب الله ورسوله لأولياء الله وكيف نعتهم فعلى هذا الوصف ينبغي أن نعتكف وبه نتصف حتى ننقلب إلى الله ونحن بهذا النعت منعوتون وبهذه الحلية متحلون فاجتهد يا أخي في ذلك ولا تتأخر عنهم ومدني بالدعاء والهمة فإن الصاحب المطلوب اليوم معدوم جداً، ولما رأيت القرين الصالح معدوماً والطبيب المشفق الناصح غير موجود تأسفت لذلك، ولحظت كل إنسان مسروراً بما هو فيه لا يتنبه لعيب أخيه فيتنبه ذلك لعيبه فيتصاحبا بالنصيحة وتحصل لهما المرتبة الصحيحة، فعملنا في عدم القرين الناصح وفتنة الإنسان بحاله أبياتاً وهي:

ذَكَرْتُ ذَنْبِي فَأَبْكَانِي وَحَيّرنِي ... مَا غَدا مِنْ جِوارِ الله يَطْرِدُنِي

كَيْفَ الخَلاصُ وَمَا ضَيّعْتُ مَنْ عمري ... بِهِ المهَيْمِنُ يَومَ الحَشْر يَطْلُبُنِي

يَا لَيْتَ أُذْني لَمَ تَسْمَعْ حَدِيثَ هَوى ... يَا لَيْتَ عَيْنِي لَمَ تَنْظُرْ إِلى حَسَن

يَا لَيْتَ كَفِّيَ لَمَ تُخْلَقْ وَلا قَدَمِي ... وَلا لِسَاني وَلَيْتَ القَلْبَ لَم يَكُنِ

أَوْلَيْتَ ذَا كَانَ خَلْقِي كَانَ يُسْعِدُني ... تَوْفِيقُ رَبّيَ في سِرٍّ وَفي عَلَنِ

وَلا أَهِيمُ بِشَخْصٍ لَيْسَ يَنْفَعُنِي ... يَومَ النُّشُورِ إذا الرَّحمنُ يَسأَلُنِي[(٢)]

وَلا نَدَبْتُ دِيَاراً كُنْتُ آلَفُهَا ... وَلا حَنَنْتُ إِلى رَبْعٍ وَلا سَكَنِ[(٣)]

وَلا تَغَزّلْتُ في وَرْقَاءَ صَادِحَةٍ ... عَلَى الأَراكِ تُغَنّي وَهيَ تَنْدُبُنِي[(٤)]

---

(١) لم أجده.

(٢) أهيم: شغف حباً بها فهو هائم.

(٣) ندبت: ندب الميت: عدد محاسنه وبكاه.

(٤) ورقاء: حمامة. صادحة: رفعت صوتها بالغناء فأطربت. الأراك: شجرة المسواك. الفطن: الحاذق الماهر.

وَلا شَرِبْتُ حُمَيّاً ضِمْنَ حابِسِها ... بِها عَلَى الشُّرْبِ مِنْ عَهْدِ ابنِ ذِي يَزَنِ

وَلا تَمَنَّيْتُ شَيئاً لَسْتُ مُدْرِكَهُ ... وَلا قَطَعْتُ بِأَسْبَابِ الرّدَى زَمَنِي

وَلا تَكَلّمْتُ في عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ ... حَتّى دُعِيتُ لَهُ بِالعَالِمِ الفَطِنِ

وَظَلّ إبليسُ الملعونُ يَلْعَبُ بي ... وَحُرْقَةُ الذَّنْبِ في الأَحْشَاءِ تُحْرِقُنِي

كَمْ ذَا عَلَى العِصْيانِ مُكْتَئِباً ... وَأَنْتَ سُبْحانَكَ اللّهُمَ تَحْفَظُنِي

أُمْسِي وَأَصْبحُ في شَيءٍ يُقَرِّبُنِي ... إلى الشَّقَاءِ وَمِنْ سَعْدِي يُبَعِدُنِي

كَمْ ذَا أُبَارِزُهُ بِالذَّنْبِ مُسْتَتِراً ... عَنِ العِبادِ وَعَيْنُ الله تَنْظُرُنِي

وَلا حَيَاءٌ مِنَ الرَّحمنِ يُقْبِضُنِي ... عَنِ المعَاصِي التي لَو شَاءَ تُهْلِكُنِي

وَلا خَلِيلٌ مِنَ الأخوانِ يُوقِظُنِي ... مِنْ نَوْمَةٍ لِعَذابِ الله تَحمِلُنِي

سِوى خَلِيلٍ رَآنِي في تَغَرُّبِهِ ... فَحَلَّ مِحَلَّ الرُّوحِ مِنْ بَدَنِي

فَلا أَزالُ إذَا يَلْهُو أَبَصّرُه ... وَلا يَزَالُ إِذَا أَسْهُو يُذَكِّرُنِي

فَلَيْسَ خِلّي إلا مَنْ يَرى زَلَلي ... فَلا يَزَالُ مَعَ الأَحْيَانِ يَنْصَحُنِي[1]

فَالصَّاحِبُ الحقُّ كَالصَابُونِ يُذْهِبُ ما ... مَافي الثَوبِ مِنْ دَنَسِ الأَقْذَارِ وَالدَرِنِ[2]

لَمّا سَمِعْتُ رَقِيبي وَهْوَ يُطِعنُنِي ... مِنْ عَنْ يَمِينِي وَيَنْهَانِي وَيَزْجُرُنِي

يَا سَيّدي وَرَعَاكَ الله تَسْمَعُنِي ... كَمْ مَرَّةً جِئْتُ وَالبوَّابُ يَمنَعني

وَلْيْسَ شَخْصاً فَتُؤذِيهِ وَتَضْرِبُهُ ... لَكِنَّه فِعْلُكَ المرْفوعُ في الكَفَنِ

فَانْظُرْ إليه وَحُسْنُ خَلْقِ صُورَتِهِ ... فَهْوَ الأَنِيسُ إِذَا استَوْحَشْتُ في الجنَنَ[3]

وَهْوَ الذي يَدْفَعُ الخَصْمَيْنِ عَنْكَ إِذَا ... مَا افْتَنَاكَ وَذَا مِنْ أَعْظَم الجَنَن

---

(١) زللي: الزلل: الخطأ.

(٢) الدرن: الوسخ.

(٣) الجنن: القبر.

فَعِنْدَما سَمِعَتْ نَفْسِي مَواعِظَهُ حَنَّتْ وَقَالَتْ تَرَى الرَّحمنُ يَقْبَلُني
فَقُلْتُ يَا نَفْسُ مَهْمَا كُنْتِ سَاعِيَةً إِلَـيْـهِ هَـرْوَلَ بِـالآلاءِ وَالـمـنَـنِ

فيا وليي أبقاك الله تعالى

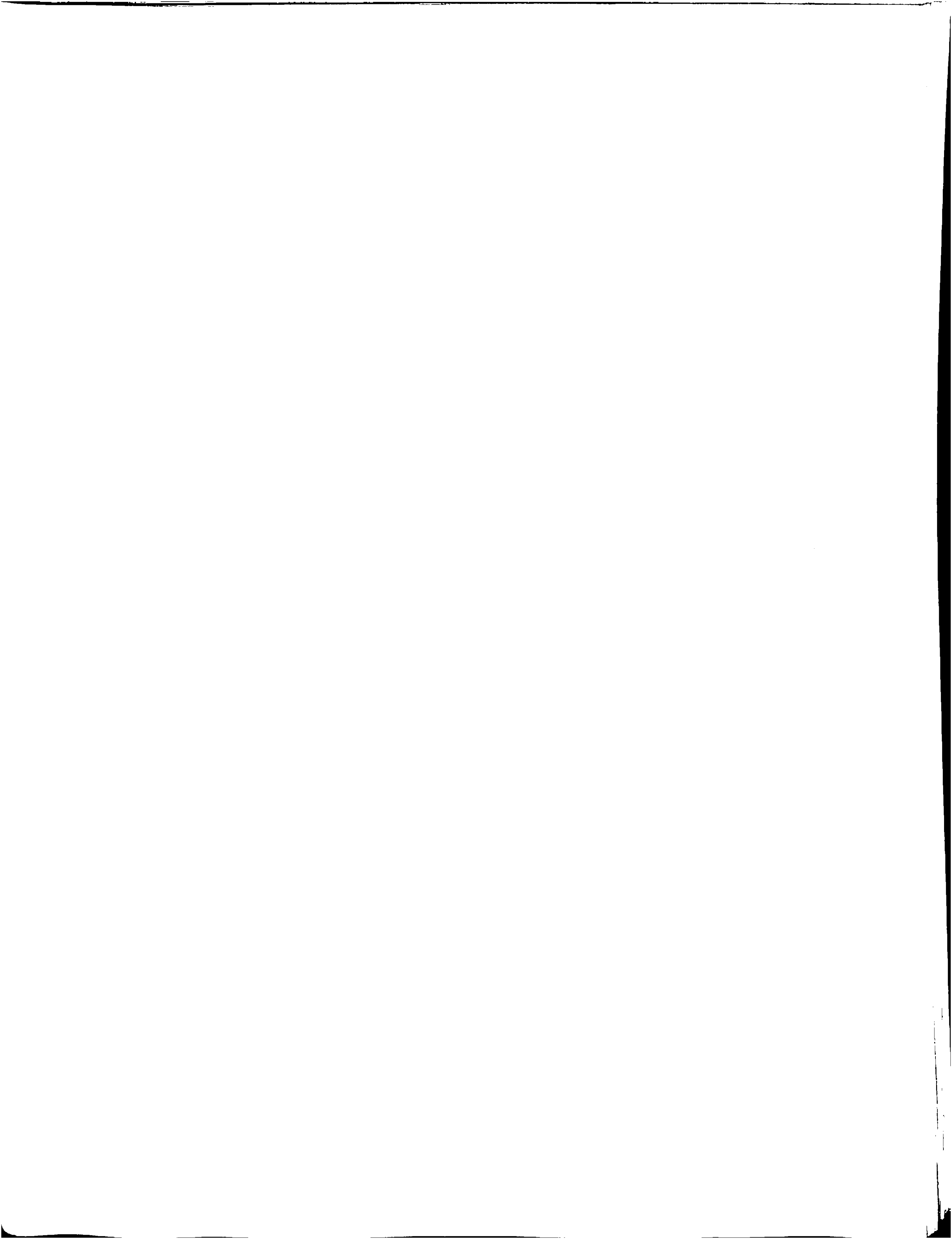
لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَقُولَ بِحُرْقَةٍ مَقَالَةَ عَبْدٍ خَالَفَ الحقَّ في القَصْد
أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَبْكِي لِغَفْلَتِي وَأَنْدُبُ قَلْباً حَادَ عَنْ سَنَنِ الرُّشْدِ(١)
إِذَا كَانَ قُربي مِنْ إِلـهَي مُقَارِناً لِقُرْبِ فُؤادِي مِنْ إِلـهي فَيَا بُعْـدِي
فَإِنْ هُوَ جَازَاني عَلَى فِعْلَتِي فَمَا جَزَائِي سِوى الإِقْصاءُ بِالعُنْفِ وَالطَّرْدِ(٢)
وَلَـكِـنَّـنِـي أَرْجُـوهُ سِـرّاً وَجَـهْـرَة فَإِنْ كَانَ هَذَا الوَجْدُ يُجْدِي فَيَا جِدِّي
وَإِنْ كُنْتُ بَدْراً أَذْهَبَ الجهْلُ نُورَهُ فَـعَـمّـا قَـرِيـبٍ يُـنْـعِـمُ الله بِـالـرَدِ
وَلَمْ يُقْصِنِي ذَنْبِي وَلا سُوءُ فِعْلَتِي فَـإِتيانُ سُوءِ الذَّنْبِ أَلْيَـقُ بِالعَبْدِ
كَمَا الجودُ والصَّفْحُ الجميلُ مَع الرِّضى لأَلْيَقُ شَيءٍ في الوُجُودِ بِذِي المَجْدِ
وَقَدْ ثَبَتَ المجدُ الكريُم لِخَالِقي وَقَدْ ثَبَتَ الأَيْمَانُ عِنْدِي فَيَا سَعْدِي

فهذا يا ولبي ما أمر الله وليك وصفيك أن يخاطبك به والله لا يستحي من الحق وحق الله أحق، وأعلم ان هذه الرسالة من أعظم منن الله عليك ومن أسنى تحفه إليك والسلام الطيب المبارك على النبي ورحمة الله وبركاته والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وعليك ورحمة الله وبركاته والسلام علينا، وكذلك يخصكم بالسلام الأتم عبد الله بدر الحبشي وجميع إخواننا وسلامي يتردد على أبنائك وأصحابك وأوليائك الشيخ المبارك السعيد بخدمتك أبو عبد الله بن المرابط والشيخ الموفق أبو عتيق والجار الصالح الحاج معافا وأبو محمد الحافظ و الذكي المجتهد أبو القاسم القابسي والفقير الصادق القريح عبد الجبار والخديم المبارك الناصح

(١) **أنوح**: ابكي
(٢) **الإقصاء**: الإبعاد.

عبد العزيز البابلي ووليي وصفيي الذي واخيت بيني وبينه أبو عبد الله القطان وقد نعيت إليكم محمد التائب رحمه الله تعالى مات بين مكة والمدينة على مرحلة من مكة بين مرو وعسفان زائراً نبي الله ﷺ شهيداً بين الحرمين يحشر يوم القيامة آمناً وكتب إليكم وليكم بهذه الرسالة من مكة حرسها الله وشرفها في شهر ربيع الأول سنة ستمائة وطاف بها أسبوعاً وألمسها الحجر الأسود والملتزم والمستجار وأدخلها البيت والمواضع الفاضلة تيمناً وتبركاً والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وصفوة المرسلين وعلى آله الطاهرين وأصحابه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وجميع عباد الله الصالحين وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.





المبادىء والغايات

فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات

المبادئ والغايات

فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات

وخطر لوليك وفقه الله تعالى أن ننبه على بعض أسرار حروف المعجم في منظوم لما تكلم على حقائقها في كتاب «المبادئ والغايات فيما تتضمنه حروف المعجم من العجائب والآيات» وكذلك تكلم عليها في باب «الفتوحات المكية» الذي ألفته بمكة، فكتبت إليكم بها في هذه الرسالة لتقفوا من ذلك على بعض ما فيها، فمن ذلك تمييز بمرتبة الحروف.

إنَّ الحروفَ أئمةُ الألفَاظِ ... شَهِدَتْ بِذَلكَ ألسنُ الحفُاظِ

دَارتْ بِها الأفلاكُ في مَلكوتِهِ ... بَينَ النِيام الخُرسِ والأيقاظِ

ألحظنَها الأسماءُ مِنْ مَكنونِها ... فَبدتْ تَعِزّ لِذَلكَ الألحاظِ

وَتقولُ لَولا فَيضُ جِودِي مَا بَدَتْ ... عِنْد الكَلامِ حَقائقُ الألفَاظِ

حرف الألف: صورة الوحدة الالهية

ألفُ الذاتِ تَنَزَّهَتْ فَهلْ ... لَكَ في الأكوانِ عينٌ وَمَحلْ

قَالَ لا غَيرَ التفانِي فَأنا ... حَرفُ تأبيدِ تَضَمَّنْتُ الأزلْ

فَأنا العبدُ الضَّعِيفُ المجتَبى ... وَأنا مِنْ عِزِّ سُلطاني وَجِلْ

حرف الهمزة: الاتصال والانفصال

هَمزةٌ تقطعُ وَقتاً وَتَصِلْ ... كُلُّ مَا جَاوَرَها مِنْ مُنْفَصِلْ

فَهِيَ الدَّهرُ عَظِيمٌ قَدْرُها ... جَلَّ أنْ يَحصِرَهُ ضَرْبُ المثَلْ

حرف الهاء: عين الحقيقة الموجود

هَذا الهَوِيّةُ كَمْ تُشِيرُ لِكُلّ ذِي ... آنِيَةٍ خَفِيَتْ لَهُ في الظَّاهِرِ
هَلْ لامَحَقَتْ وُجودَ رَسْمِكَ عِنْدَما ... تَبْدو لا وَلَهُ عُيُونُ الآخِرِ

حرف العين المهملة

عَيْنُ العُيونِ حَقِيقَةُ الإيجادِ ... فَانْظُر إليهِ بِمَنْزِلِ الأَشْهَادِ
تُبْصِرُهُ يَنْظر أَبَداً نَحو مُوجِدِ ذَاتِهِ ... نَظَرَ السقَيِمِ مَحَاسنَ العُوّادِ
لَمْ يَلتَفِتْ أَبَداً لِغيرِ إِلهِهِ ... يَرجُو وَيَحْذَرُ شِيمَةَ العُبَّادِ

حرف الحاء المهملة

حَاءُ الحَواميمِ سِرُّ الله في السُوَرِ ... أَخفَى حَقِيقتَه عَنْ رُؤْيَةِ البَشَرِ
فَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْ كَوْنٍ وَعَنْ شَبَحٍ ... فَارْحَلْ إلى عَالَمِ الأَرْواحِ والصُّوَرِ
وَانْظُرْ إلى حَامِلاتِ العَرْشِ قَدْ نَظَرَتْ ... إلى حَقَائِقِهَا جَاءَتْ عَلَى قَدَرِ
تَجِدْ لِحَائِكَ سُلْطاناً وَعِزَّتُهُ ... أنْ لا يُداني وَلا يَخْشَى مِنَ الغِيَرِ

حرف الغين المنقوطة

الغَيْنُ مِثْلُ العَينِ في أَحْوالِهِ ... إلا تَجلِيهِ الأَطَمِّ الأَخْطَرِ
في الغَيْنِ أَسْرارُ التَجَلّي الأَقْهَرِ ... فَاعْرِفْ حَقِيقَةَ فَيْضِه وَتَستّرِ
وَانْظُرْ إليهِ مِنْ سِتَارَةِ كَوْنِهِ ... حَذَراً عَلَى الرَّسْمِ الضَّعِيفِ الأَحْقَرِ

حرف الخاء المنقوطة: علو وسفل وجنة ونار

الخاءُ مَهمَا أَقبلَتْ أَو أَدبَرَتْ ... أَعْطَتْكَ مِنْ أَسرارِهَا وَتَأَخَّرَتْ
فَعُلُوُّهَا يَهوِي الكِيَانَ وَسُفلُها ... يَهوِي المُكَوَّنَ حِكْمةً قَدْ أَظْهَرَتْ
أَبْدَى حَقِيقَتُها مُخَطِطَ ذاتِها ... فَتَدنَّستْ وَقْتاً وَثَمّ تَطَهّرتْ

فَاْعجَبْ لها مِنْ جَنَّةٍ قَدْ أُزْلِفَتْ ... في سُفْلِهَا وَلهيبَ نارٍ سُعِّرتْ

حرف القاف

القَافُ سِرُّ كَمالِهِ في رَأْسِهِ ... وَعُلومُ أهلِ العُرْبِ مَبدأُ قَطْرِه

وَالشّوقُ يُثنيه وَيَجعلُ غَيْبَهُ ... في شَطْرِهِ وَشُهُودُهُ في شَطْرِهِ

وَانْظُرْ إلى تَعريقِهِ كَهِلالِهِ ... وَانْظُر إلى شَكْلِ الرُؤَيْسِ كَبَدْرِهِ

عَجَباً لآخِرِ نَشأَةٍ هو مَبْدأُ ... لِوجُودِ مَبدئِهِ وَمَبْدأ عَصْرِهِ

حرف الكاف

كَافُ الرَّجاءِ يُشَاهِدُ الإجْلالا ... مَنْ كَانَ خَوْفَ شَاهِدِ الأَفْضَالا

فَانْظُرْ إلى قَبْضٍ وَبَسْطٍ فِيهِما ... يُعطيكَ ذا صَدَّاً وَذاكَ وِصَالا

الله قَدْ جَلَّى لِذَا إجْلالَهُ ... وَلِذاكَ جَلَّى مِنْ سَناهُ جَمَالا

حرف الضاد المعجمة

في الضَّادِ سِرٌّ لَوْ أَبُوحُ بِذِكْرِهِ ... لَرَأَيْتَ سِرَّ الله في جَبَروتِهِ

فَانْظُرْ إليهِ وَاحِداً وَكَمَالُهُ ... مِنْ غَيرِهِ في حَضْرَتِي رَحَمُوتِهِ

وَإمامُهُ اللَّفْظُ الذِي بوجُودِهِ ... أَسْرى بِهِ الرَّحمنُ مِنْ مَلَكُوتِهِ

حرف الجيم

الجِيمُ يَرفَعُ مَنْ يُريدُ وِصَالَهُ ... لِمَشَاهِد الأَبْرارِ والأَخيارِ

فَهو العَبِيدُ القِنُّ إلا أَنَّهُ ... مُتَحَققٌ بِحَقيقةِ الإيثَارِ

يَرنُو بِغَايَتِهِ إلى مَعبودِهِ ... وَبِبَدئِه يَمشي عَلَى الآثَارِ

هُو مِنْ ثَلاثِ حَقَائقٍ مَعلومَةٍ ... وَمِزاجُهُ بَرْدٌ وَلَفْحُ النَّارِ

حرف الشين المعجمة بالثلاث

في الشّينِ سَبعةُ أسرارٍ لِمَنْ عَقَلا ... وَكُلُّ مَنْ نَالها يَوماً فَقدْ وَصَلا
تُعطِيكَ ذَاتكَ وَالأجْسامُ سَاكِنَةٌ ... إِذَا الأمينُ عَلَى قَلبٍ بِها نَزَلا
لَو عَاينَ النَّاسُ مَا تَحويهِ مِنْ عَجَبٍ ... رَأوا هِلالَ مَحاقِ الشَّهرِ قَدْ كَمُلا

حرف الياء

يَاءُ الرِّسَالةِ حَرفٌ في الثرى ظَهَرا ... كَالواوِ في العَالمِ العُلْوِي مُعْتَمِرَا
فَهو المِدُّ جُسوماً مَالَها ظُلَلٌ ... وَهو المُمِدُّ قُلوباً عانَقَتْ صُوَرَا
إِذَا أرادَ يناجِيكُمْ بِحِكْمَتِهِ ... يَتلو فَيُسمعُ سِرَّ الأحْرفِ السُّوَرَا

حرف اللام

اللامُ للأزَلِ السَّنِي الأقْدَسِ ... وَمُقَامُهُ الأعَلَى البَهِي الأنفُسِ
مَهما يَقُمْ تُبْدِي المكُوِّن ذَاتِهِ ... وَالعالَمُ الكَوْنِي مَهما يَجلِسُ
يُعطيكَ رُوحاً مِنْ ثَلاثِ حَقَائِقَ ... يَمشِي وَيرفُلُ في ثِيابِ السُّندُسِ

حرف الراء

رَاءُ المحبةِ في مَقامِ وِصَالِهِ ... أَبَداً بِدَارِ نَعيمِهِ لَنْ يُخْذَلا
وَقتاً يَقولُ أنا الوَحيدُ فَلا أرى ... غَيرِي وَوَقتاً يَا أنَا لَنْ يُجهلا
لَوْ كانَ قلبُكَ عِندَ رَبِّكَ هَكَذَا ... كُنْتَ المقرَّبَ والحبَيبُ الأكَمَلا

حرف النون

نُونُ الوُجودِ تَدلُّ نُقطةَ ذاتِها ... في عَيْنَيْهَا عَيْناً عَلَى مَعْبودِهَا
فَوُجودُها مِنْ جُودِهِ وَيَمينُه ... وَجَميعُ أكْوانِ العُلَى مِنْ جُودِهَا
فَانْظُر بِعَيْنِكَ لُطفَ عَيْنِ وُجُودِهَا ... مِنْ جُودِهَا تَعْثُرْ عَلَى مَفْقودِهَا

حرف الطاء المهملة

في الطَّاءِ خَمسةُ أَسرارٍ مُخَبأةٌ فَلَها حَقيقةُ عَيْنِ الملْكِ في المَلِكِ
وَالحقُّ في الخلقِ وَالأسرارُ نَائبةٌ وَالنورُ في النّارِ وَالإِنْسَانُ في الملَكِ
فَهذَهَ خمسةُ مَهما كَلِفْتَ بِها عَلِمْتَ أَنَّ وجودَ الفُلْكِ في الفَلَكِ

حرف الدال المهلمة

الدَّالُ مِنْ عَالمِ الكَوْنِ الذي انْتَقَلا مِنَ الكيانِ فَلا عَيْنٌ وَلا أَثَرُ
عَزَّت حقائِقُهُ عَنْ كُلِّ ذِي بَصَرٍ سُبْحَانَهُ جَلَّ أَنَّ يَحْظَى بِهِ بَشَرُ
فيهِ الدَّواءُ فَجودُ الحقِّ مَنْزِلُهُ فِيهِ المثَاني فَفِيهِ الآيُّ وَالسُوَرُ

حرف التاء باثنتين من فوق

التَّاءُ يَظْهَرُ أَحيَاناً وَيَستَتِرُ فَحَظُّهُ مِنْ وُجودِ القَوم تَلْوِينُ
يَحْوي عَلَى الذَّاتِ وَالأوصافُ حضرته وَمَالَهُ في جَنابِ الفِعْلِ تَمْكِينُ
يَبدُو فَيَظْهَرُ مِنْ أَسرَارِهِ عَجَباً وَمُلْكُهُ اللَّوْحُ وَالأَقلامُ وَالنُونُ
الليلُ وَالشمسُ وَالأَعَلَى وَطَارِقُهُ في ذَاتِه وَالضُّحَى وَالشَّرْحُ وَالتِينُ

حرف الصاد اليابسة

في الصَّادِ نورُ القَلْبِ باتَ يَرقِيه عِنْدَ المنَامِ وَسِترُ السُّهْدِ يَحْجُبُهُ
فنَمْ فإِنَّك تَلْقى نُورَ سَجْدتِهِ يُنيرُ صَدْرَكَ وَالأَسْرَارُ تَرْقُبُهُ
فَذلِكَ النُّورُ نُورُ الشُّكْرِ فَارتَقِبِ المشْكُورَ فَهوَ عَلَى العَاداتِ يَعْقُبُهُ

حرف الزاي

في الزَّاي سِرٌّ إِذَا حَقَّقْتَ مَعناهُ كَانَتْ حَقائِقُ روحِ الأَمْرِ مَغْناهُ
إِذَا تَجلَّى إِلى قَلْبٍ بِحِكمَتِهِ عِنْدَ الفَنَاءِ عَنِ التَنْزِيهِ أَغْنَاهُ

فَلَيْسَ في أَحْرُفِ الذَّاتِ النّزِيهةِ مَنْ ... يُحَقِّقُ العِلْمَ أَوْ يَدْرِيه إلا هُو

حرف السين المهملة

في السِّينِ أَسْرارُ الوجودِ الأَرْبَعِ ... وَلَهُ التَّحقُّقُ وَالمقَامُ الأَرْفَعُ

مِنْ عَالَمِ الغَيبِ الذي ظَهَرَتْ بِهِ ... آثارُ كَونِ شَمسِهَا تَتَبرقَعُ

حرف الظاء المعجمة

في الظَّاءِ سِتّةُ أَسْرَارٍ مُكَتّمَةٌ ... خَفِيّةٌ مَالَهَا في الخَلْقِ تَعْيينُ

إلا مَجَازاً إِذَا جَادَتْ بِفَاضِلِها ... يُرَى لَهَا في ظُهورِ العَيْنِ تَحسينُ

يَرجُو الإِلهَ وَيَخشى عَدْلَهُ وَإِذَا ... مَا غَابَ عَنْ كَوْنِهِ لم يَبْدُ تَكْوينُ

حرف الذال المعجمة

الذَّالُ يَنْزِلُ أَحيَاناً عَلَى جَسَدي ... كُرْهاً وَينزِلُ أَحياناً عَلَى خَلَدِي

طَوْعاً وَيَعْدَمُ مِنْ هَذا وَذَاكَ فَمَا ... يُرى لَهُ أَثَرُ الزُّلْفى عَلَى أَحَدِ

هُوَ الإِمَامُ الذِي مَا مِثْلُهُ أَحَدٌ ... تَدْعوهُ أَسماؤهُ بالواحِدِ الصَّمَدِ

حرف الثاء بالثلاثة

الثَّاءُ ذَاتِيَّةُ الأَوصَافِ عَالِيَةٌ ... في الوَصْفِ وَالفِعْلِ وَالأَقْلامُ تُوجِدُها

فَإِنْ تَجَلَّتْ بِسِرِ الذاتِ وَاحِدةً ... يومَ البِدايَةِ صَارَ الخَلْقُ يَعْبُدُهَا

وَإِنْ تَجَلَّتْ بِسرِّ الوَصْفِ ثَانيةً ... يَوْمَ التَّوسُطِ صَارَ النَّعْتُ يَحْمُدُها

وَإِنْ تَجَلَّتْ بِسرِّ الفِعْلِ ثَالِثَةً ... يَومَ الثُلاثَاءِ صَارَ الكَوْنُ يُسْعِدُها

حرف الفاء

الفَّاءُ مِنْ عَالمِ التَّحقيقِ فَاذّكِرِ ... وَانْظُرْ إلي سِرِّها يَأتي عَلَى قَدَرِ

لَهَا مَعَ الياءِ مَزْجٌ في الوجُودِ فَمَا ... تَنْفَكُّ بالَمزْجِ عَنْ حَقٍّ وَعَنْ بَشَرِ

فَإنْ قَطَعْتَ وِصَالَ اليَاءِ دَانَ لَهَا ... مِنْ أَوْجُهِ عَالَمِ الأَرْواحِ وَالصُّوَرِ

حرف الباء بواحدة

البَّاءُ للعارِفِ الشِّبْلي مُعْتَبَرٌ ... وَفي نُقَيْطَتِهَا للقَلْبِ مُدَّكَرُ

سِرُّ العُبودِيَةِ العَلياءِ مَازَجَهَا ... لِذَاكَ نَابَ مَنَابَ الحَقِّ فَاعْتَبِرُوا

أَلَيْسَ يُحْذَفُ مِنْ بِسمِ حَقِيقَتُهُ ... لأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فَذَا وَزَرُ

حرف الميم

الميمُ كالنُّونِ إنْ حَقَّقْتَ سِرَّهُما ... في غَايةِ الكَوْنِ عَيناً والبِدايَاتِ

وَالنُّونُ للحقِّ وَالمِيمُ الكَرِيمَةُ لي ... بَدْءٌ لِبَدءٍ وَغاياتٌ لِغَايَاتِ

فَبرزَخُ النُّورِ رُوحٌ في مَعارِفِهِ ... وَبَرزَخُ المِيمِ ربٌّ في البَرِيَّاتِ

حرف الواو

وَاوُ إِيَّاكَ أَقْدَسُ ... مِنْ وُجودِي وَأَنْفَسُ

فَهوَ رُوحٌ مُكَمَّلٌ ... وَهوَ سِرٌّ مُسَدَّسُ

حَيثُ مَا لاحَ عَينُهُ ... قِيلَ بَيْتٌ مُقَدَّسُ

بَيتُهُ السِّدْرَةُ ... العَلِيةُ فِينَا المُؤَسَّسُ

حرف لام ألف وألف اللام

أَلِفُ اللامِ وَلامُ الأَلِفِ ... نَهْرُ طَالُوتَ فَلا تَغْتَرِفِ

وَاشْرَبِ النَّهرَ إلى آخِرِهِ ... وَعَنِ النَّهْمَةِ لا تَنْحَرِفِ

وَلْتَقُمْ مَا دُمتَ رَيَّاناً فَإِنْ ... ظَمِئَتْ نَفْسُكَ قُمْ فَانْصَرِفِ

وَاعْلَمْ بِأَنّ الله قَدْ أَرْسَلَهُ ... نَهْرُ بَلوى لِفُؤادِ المُشْرِفِ

فَاصْطَبِرْ بِاللهِ وَاحْذَرْهُ فَقَدْ ... يُخْذَلُ العَبْدُ إذَا لَمْ يَقِفِ

حرف لام ألف «لا»

تُعانِقُ الأَلِفُ اللامَ وَاللامُ مِثْلُ الحَبِيبَيْنِ فَالأعوامُ أحْلامُ
وَالتَّفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ التي عَظُمَتْ فَجَاءَني مِنْهُما في اللَّفِ إعْلامُ
إنَّ الفُؤادَ إذا مَعْناهُ عَانَقَهُ بَدَا لَهُ فِيهِ إيجادٌ وَإعْدَامُ

حرف البناء والأعراب

حَرَكاتُ الحُروفِ سِتٌّ وَمِنْهَا أظْهرَ الله مِثْلَها الكَلِماتِ
هِيَ رَفْعٌ ثُمَّ نَصْبٌ وَخَفْضُ حَرَكاتٌ للأحرفِ المعْرَباتِ
وَهْي فَتْحٌ ثُمَّ ضَمٌّ وَكَسْرُ حَرَكاتٌ للأحرُفِ الثَّابِتاتِ
وَأُصولُ الكَلامِ حَذْفٌ فَمَوْتٌ أوْ سُكُونٌ يَكُونُ عَنْ حَرَكَاتِ
هَذِهِ حَالَةُ العَوَالِمِ فَانْظُرْ بِحَيَاةٍ غَرِيبَةٍ في مَوَاتِ

شيء الشيء

لِلحَقِّ حَقٌّ وللإنسانِ إنْسانُ عِنْدَ الوجُودِ ولِلْقُرآنِ قُرآنُ
وَللعَيانِ عَيانٌ في الشُّهودِ كَمَا عِنْدَ المُنَاجَاةِ للآذانِ آذانُ
فَانْظُرْ إلينا بِعَيْنِ الجَمْعِ تَحْظَ بِنَا في الفَرْقِ فَالْزمْهُ فَالقُرْآنُ فُرْقَانُ

❁ ❁ ❁

المحتويات



روح القدس

في

محاسبة النفس

محاسبة النفس





دمشق - حلبوني - بناء الخجا
هاتف ٢٤٥١٥٧٤ - ٢٢١٣٩٦٦ فاكس ٢٢٤٣٨٤٨
Email : albyrouty@dalylak.com